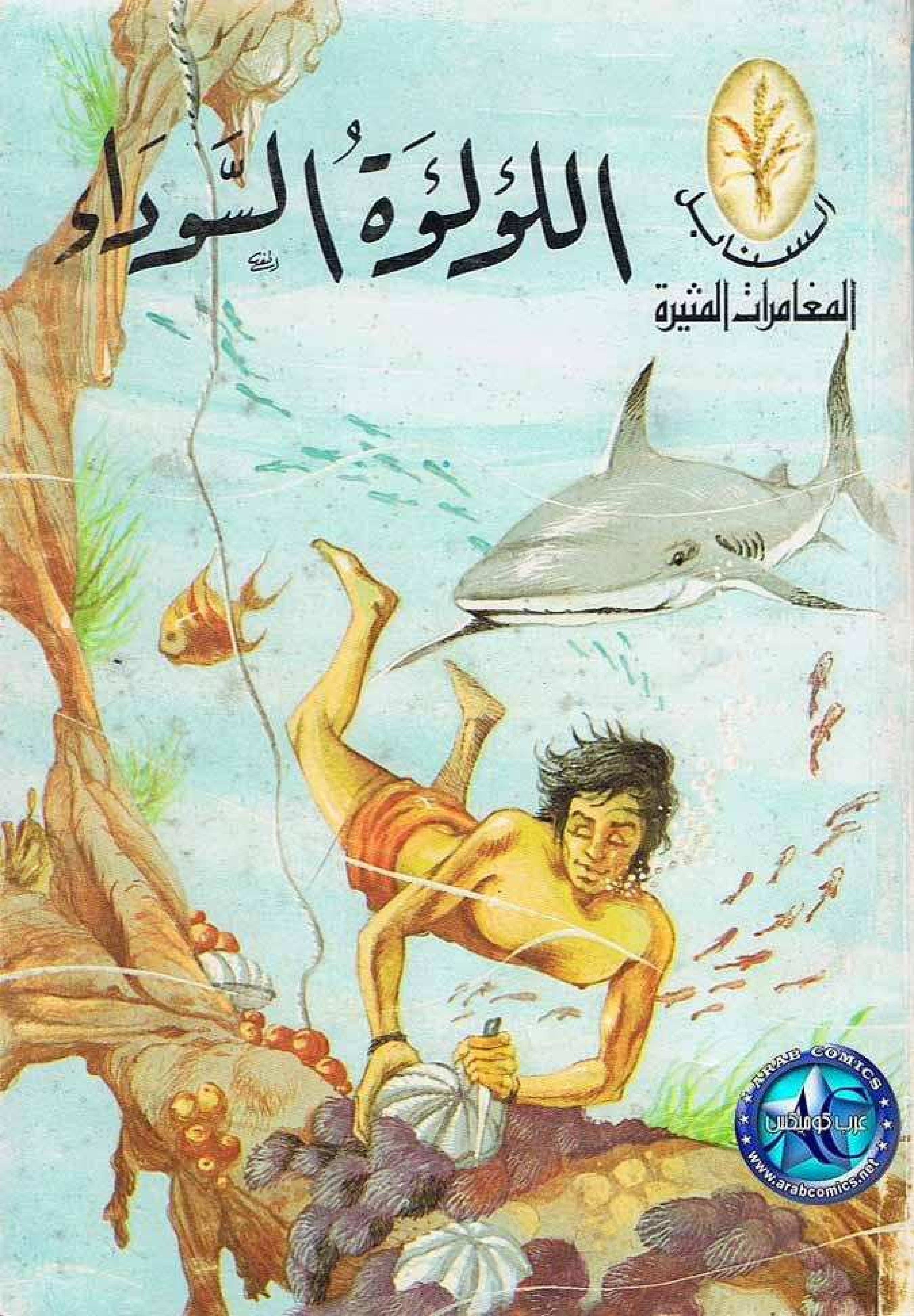
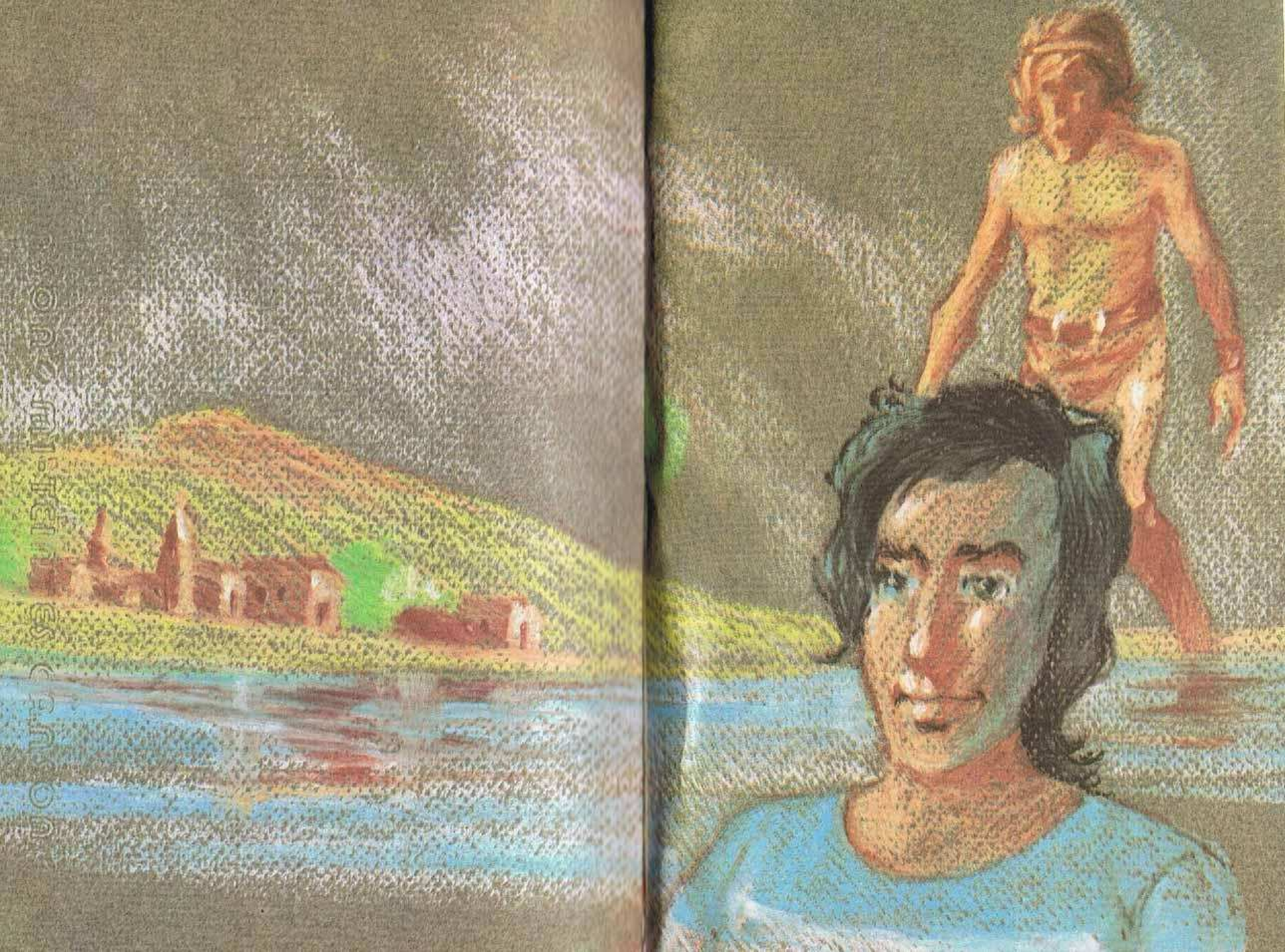

السنابل
اللؤلؤة السوداء
المغامرات المثيرة
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net



١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة

الطبعة الثانية
رقم الإيداع : ٢٢٩٧ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٢-٥٥-١٤٤٥-٩٧٧ ISBN

طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

السنابل

المغامرات المثيرة

اللؤلؤة السوداء



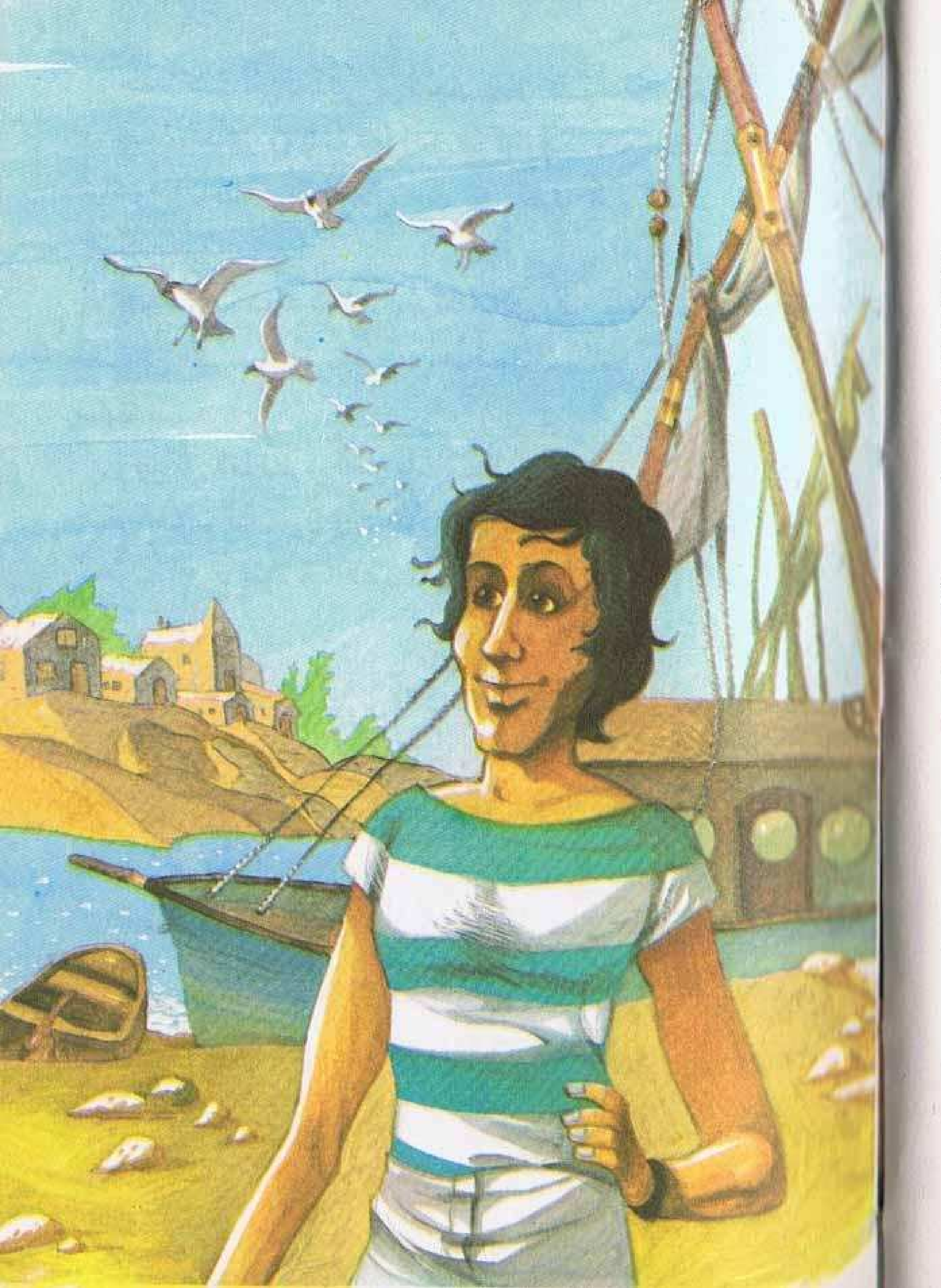
تأليف : سكوت أوديل

إعداد : محمود عبد العليم حسان

رسوم : علاء الدين سعد

مكتبة لبنان

بيروت



الفَصْلُ ٱلأَوَّلُ

شَيْطانُ ٱلبَحْرِ

كُلُّ سُكَّانِ مَدينةِ لاباز ٱلمِكْسيكيَّةِ ، وَكُلُّ ٱلمُقيمينَ عَلى ساحِلِ شِبْهِ جَزيرةِ كاليفورْنيا أَوْ في جِبالِها بِالمِكْسيك (بِأَمْريكا ٱلشَّماليَّةِ) ، سَمِعوا عَنْ مانْتا دِيابْلو أَوْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ – تِلْكَ ٱلسَّمَكةِ ٱلرَّهيبةِ ! بَلْ إِنَّ كَثيرينَ مِنْ سُكَّانِ ٱلعالَمِ ٱلخارِجيِّ سَمِعوا عَنْهُ أَيْضًا ؛ وَهٰذا ما عَلِمْتُهُ مِنَ ٱلزُّوَّارِ ٱلوافِدينَ عَلى ٱلمَدينةِ . وَمَعَ ذٰلِكَ فَمِنْ بَيْنِ كُلِّ هٰؤُلاءِ ٱلنَّاسِ لَمْ يَرَهُ سِوى ٱثْنَيْنِ فَقَطْ ، أَحَدُهُما عَلى قَيْدِ ٱلحَياةِ ، وَهُوَ أَنا : رامُون سالازار .

يَدَّعي ٱلكَثيرونَ مِنْ أَهالي لاباز وَشِبْهِ جَزيرةِ كاليفورْنيا أَنَّهُمْ شاهَدُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ . وَعِنْدَما يَهْبِطُ ٱللَّيْلُ يَجْلِسُ ٱلمُسِنُّونَ حَوْلَ ٱلنَّارِ يَرْوُونَ لِأَحْفادِهِمُ ٱلقِصَصَ عَنْ لِقاءاتِهِمْ بِهِ ، وَتَسْمَعُ ٱلأُمَّهاتِ يُهَدِّدْنَ أَطْفالَهُنَّ بِٱسْتِدْعائِهِ إِذا هُمْ لَمْ يَسْتَجيبوا لَهُنَّ .

لَقَدْ بَلَغْتُ ٱلآنَ ٱلسَّادِسةَ عَشْرَةَ ، وَلٰكِنَّني ما زِلْتُ أَذْكُرُ كَلِماتِ والِدَتي لي عَنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ٱلَّذي يَفوقُ حَجْمُهُ حَجْمَ أَضْخَمِ سَفينةٍ في خَليجِ لاباز ، وَٱلَّذي لَهُ سَبْعُ أَعْيُنٍ صَفْراءَ ، وَسَبْعَةُ صُفوفٍ مِنَ ٱلأَسْنانِ ٱلحادَّةِ كَٱلسَّكاكينِ وَٱلَّتي يَسْتَطيعُ بِها سَحْقَ عِظامي كَما تُسْحَقُ ٱلعِصِيُّ .

وَكانَتْ أُمَّهاتُ أَصْدِقائي يَرْوينَ لَهُمْ ماذا يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِمْ إِنْ لَمْ يَمْتَثِلوا لِتَعْليماتِهِنَّ ، بِٱلرَّغْمِ مِنْ تَضارُبِ رِواياتِهِنَّ عَنْ عَدَدِ أَسْنانِهِ وَأَعْيُنِهِ .

عِنْدَما كانَتْ أُمِّي تُحَدِّثُني عَنْ شَيْطانِ ٱلْبَحْرِ كُنْتُ أَشْعُرُ بِقُشَعْرِيرَةٍ تَسْري في جَسَدِي ٱلصَّغيرِ ، ويَقِفُ شَعْرُ رَأْسي مِنَ ٱلخَوفِ . ومع ذٰلك كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ أَراهُ وأَعُدَّ أَسْنانَهُ وأَعْيُنَهُ حتَّى أَقِفَ عَلى حَقيقَةِ أَمْرِهِ بَعْدَ أَنْ تَضارَبَتِ ٱلحِكاياتُ عَنْهُ .

قالَ جَدِّي إِنَّهُ شاهَدَ شَيْطانَ ٱلْبَحْرِ هٰذا بِعَيْنَي رأْسِهِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، ولٰكِنَّهُ ، كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَرَغْمَ سَعَةِ عِلْمِهِ واطِّلاعِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُعْطِيَني صُورَةً صادِقَةً لَهُ .

وَنُقِلَ عَنِ ٱلعَمِّ لينارِس ٱلَّذي ماتَ مُنْذُ زَمَنٍ أَنَّهُ قالَ : « شاهَدْتُ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ ٱلضَّخْمَ هٰذا يَجولُ في ٱلحُقولِ ويُحْرِقُ ٱلنَّباتَ في كُلِّ بُقْعَةٍ حَلَّ بِها ، فَدَعَوْتُ ٱللهَ أَنْ يَعودَ هٰذا ٱلشَّيْطانُ إِلى ٱلبَحْرِ وَلا يَبْرَحَهُ ، وَاسْتَجابَ ٱللهُ لِدُعائي . »

وَلا أَعْلَمُ إِنْ كانَ ٱلعَمُّ لينارِس قَدْ شاهَدَهُ ثانِيَةً أَمْ لا ، وَلٰكِنَّ ٱلَّذي أَعْلَمُهُ أَنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ تَغَيَّرَ أَثْناءَ حَياتِهِ في ٱلبَحْرِ ، وأَصْبَحَ مِنْ أَجْمَلِ ٱلكائِناتِ ٱلحَيَّةِ ٱلَّتي رَأَيْتُها . نَعَمْ مِنْ أَجْمَلِ ٱلكائِناتِ ! ولٰكِنَّهُ ظَلَّ شِرِّيرًا كَما كانَ عِنْدَما رَآهُ ٱلعَمُّ لينارِس مُنْذُ مِئَةِ سَنَةٍ .

مَرَّتِ ٱلسَّنَواتُ وَتَحَقَّقَ ٱلحُلْمُ ، وَشاهَدْتُ بِنَفْسي شَيْطانَ ٱلبَحْرِ ٱلَّذي شَكَكْتُ في وُجودِهِ ، بَلْ وخُضْتُ مَعَهُ مَعْرَكَةً عَنيفَةً أَنا وغاسْبَر رُويز .

وَقَبْلَ أَنْ أَحْكِيَ لَكُمْ قِصَّتي مَعَ هٰذا ٱلشَّيْطانِ ، سَأَرْوِي لَكُمْ أَوَّلًا قِصَّةَ لُؤْلُؤَةِ ٱلسَّماءِ .

الفَصْلُ ٱلثَّاني

كَيْفَ أَصْبَحْتُ شَرِيكًا

يَعيشُ ٱلمَحارُ عَلى ٱلصُّخورِ في قاعِ ٱلبَحْرِ ، حاوِيًا بِداخِلِهِ ٱللُّؤْلُؤَ ، وَهِيَ حَبَّاتٌ جَميلَةٌ كُرَوِيَّةُ ٱلشَّكْلِ . وَلِلْحُصولِ عَلَيْها يَغوصُ ٱلغَوَّاصونَ إِلى ٱلقاعِ وَيَسْتَخْرِجونَ ٱلمَحارَ ، وَيَسْتَخْدِمونَ في عَمَلِهِمْ هٰذا سُفُنًا خاصَّةً يُسَمُّونَها سُفُنَ صَيْدِ ٱللُّؤْلُؤِ .

كانَ أَبي بْلاس سالازار أَشْهَرَ تُجَّارِ ٱللُّؤْلُؤِ في بَلَدِنا . وَقَدْ عُرِفَ بِحُسْنِ تَعامُلِهِ مَعَ ٱلصَّيَّادينَ ٱلَّذينَ يَبيعونَهُ صَيْدَهُمْ ، وَمَعَ ٱلمُشْتَرينَ ٱلَّذينَ يَفِدونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكانٍ .

وفي شَهْرِ يُولْيَه مِنَ ٱلعامِ ٱلماضي ، وَيَوْمَ عيدِ ميلادي ٱلسَّادِسَ عَشَرَ ، جَعَلَني أَبي شَريكًا لَهُ في تِجارَتِهِ ، وَثَبَّتَ عَلى بابِ مَكْتَبِهِ لافِتَةً تَحْمِلُ هٰذا ٱلمَعْنى . وَدَعاني إِلى مَكْتَبِهِ ، وَأَشارَ إِلى ٱللَّافِتَةِ ، وَقالَ مُبْتَهِجًا :

« لَقَدْ أَصْبَحْنا يا بُنَيَّ مِنَ ٱليَوْمِ شَريكَيْنِ ، وَسَنَبيعُ ضِعْفَ ما كُنْتُ أَبيعُ أَنا وَحْدي ، وَسَوْفَ تَزْدَهِرُ تِجارَتُنا وَتَتَّسِعُ . عَلَيْكَ ٱلآنَ أَنْ تَرْفَعَ هامَتَكَ ، وَتَرْتَدِيَ مَلابِسَ ٱلكِبارِ ، فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلمَلابِسَ تُظْهِرُ ساعِدَيْكَ ٱلنَّحيلَتَيْنِ . »

كانَ جِسْمي ضَئيلًا بِٱلنِّسْبَةِ لِعُمْري ، وكانَ أَبي يَوَدُّ لَوْ كُنْتُ مِثْلَهُ ضَخْمَ ٱلجِسْمِ .

وقادَني أبي إلى حُجْرةِ مَكْتَبِهِ كَيْ يُرِيَني كَيْفَ تُفْتَحُ الخِزانةُ الحَديديَّةُ الَّتي يَحْتَفِظُ فيها بِاللُّؤْلُؤِ . وَأَخْرَجَ الصَّناديقَ وَكَشَفَ لي عَمَّا بِداخِلِها مِنْ لُؤْلُؤٍ مُخْتَلِفِ الأَلْوانِ وَالأَشْكالِ وَالأَحْجامِ .

قالَ لي : « في الغَدِ يارامُون سَأُعَلِّمُكَ كَيْفَ تَزِنُ اللُّؤْلُؤَ . هٰذا شَيْءٌ هامٌّ . فَاللُّؤْلُؤَةُ الكَبيرةُ تُساوي الكَثيرَ ، لَوْ كانَتْ جَميلةَ اللَّوْنِ وَالشَّكْلِ ؛ وتَنْخَفِضُ قيمَتُها إذا لَمْ تَكُنْ كَذٰلِكَ .

« إنَّ وَزْنَ الذَّهَبِ وَالجَواهِرِ وَاللَّآلِئِ يُقاسُ بِالقَراريطِ ، وَالقيراطُ يُساوي خُمسَ غِرامٍ ، وَسَوْفَ أُبَيِّنُ لَكَ أَشْكالَ اللُّؤْلُؤِ المُخْتَلِفةَ ، وَأُريكَ كَيْفَ تَضَعُ اللُّؤْلُؤَةَ أَمامَ الضَّوْءِ ، وتَحْكُمُ عَلَيْها بِالجَوْدةِ أَوِ الرَّداءةِ ، وَعِنْدَما تَكْبُرُ مِثْلي سَوْفَ تُصْبِحُ مِنْ أَشْهَرِ تُجّارِ اللُّؤْلُؤِ في العالَمِ ، وَسَوْفَ تُعَلِّمُ ابْنَكَ ما عَلَّمْتُكَ . »

كانَ هٰذا اليَوْمُ مِنْ أَسْعَدِ أَيّامِ حَياتي ، وَلٰكِنَّني خَشيتُ أَنْ يَطولَ الوَقْتُ قَبْلَ أَنْ يَسْمَحَ لي والِدي بِالخُروجِ مَعَ سُفُنِ صَيْدِ اللُّؤْلُؤِ ، وَهٰذا ما كُنْتُ أَحْلُمُ بِهِ دائِمًا . كانَ والِدي يَقولُ لي : « سَوْفَ تَخْرُجُ مَعَ السُّفُنِ عِنْدَما تَبْلُغُ السادِسةَ عَشْرَةَ ، وَسَأُعَلِّمُكَ كَيْفَ تَغوصُ في الماءِ . »

وَقَدْ بَلَغْتُ هٰذِهِ السِّنَّ الآنَ ، وبَقِيَ أَنْ أَتَعَلَّمَ أَشْياءَ قَبْلَ أَنْ أَغوصَ بَحْثًا عَنِ اللُّؤْلُؤِ .

وَذاتَ يَوْمٍ شاهَدْتُ مِنْ نافِذةٍ صَغيرةٍ في حُجْرةِ المَكْتَبِ سُفُنَنا الخَمْسَ

مُعَدَّةً لِلإِبْحارِ . وَسَمِعْتُ أَبي يُصْدِرُ تَعْليماتِهِ لِرِجالِهِ بِالاسْتِعْدادِ لِلرَّحيلِ خِلالَ ثَلاثِ ساعاتٍ ، وَكُنْتُ مُسْتَعِدًّا تَمامًا لِلإِبْحارِ مَعَهُمْ لَوْ سَمَحَ لي بِذٰلِكَ .

كانَ واجِبي في ذٰلِكَ اليَوْمِ أَنْ أَفْحَصَ بَعْضَ اللُّؤْلُؤِ ، وَأَزِنَهُ وَأُسَجِّلَ مُواصَفاتِهِ في سِجِلٍّ خاصٍّ . وَبَدَأْتُ بِأَكْبَرِ اللَّآلِئِ حَجْمًا ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ مُسْتَديرةً تَمامًا ، وَبَدا بِداخِلِها بَعْضُ الشَّوائِبِ فَدَوَّنْتُ بِالسِّجِلِّ : « اللُّؤْلُؤَةُ رَقْمُ (١) تَزِنُ ثَمانيةَ قَراريطَ وَسَبْعةَ أَعْشارِ القيراطِ ، رَديئةُ اللَّوْنِ . »

وَفَحَصْتُ الثّانيةَ وَكَتَبْتُ : « اللُّؤْلُؤَةُ رَقْمُ (٢) تَزِنُ ثَلاثةَ قَراريطَ ، مُسْتَديرةٌ ولَوْنُها جَميلٌ . » وَبَيْنَما كُنْتُ أَزِنُ اللُّؤْلُؤَةَ السّابِعةَ سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ ، ثُمَّ انْفَتَحَ البابُ الحَديدِيُّ لِيَدْخُلَ أَبي العِمْلاقُ بِسَحْنَتِهِ السَّمْراءِ



اَلَّتي اكْتَسَبَها مِنْ حَرارَةِ ٱلشَّمْسِ وَهَواءِ ٱلْبَحْرِ .

تَقَدَّمَ أَبي نَحْوي وَنَظَرَ في ٱلسِّجِلِّ ٱلَّذي أُدَوِّنُ فيه مُلاحَظاتي وَقالَ : « أَنْتَ سَريعٌ في عَمَلِكَ . لَقَدِ انْتَهَيْتَ مِنْ فَحْصِ سِتِّ لآلِئَ في فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ جِدًّا . » ثُمَّ الْتَقَطَ إحْداها قائِلًا : « تُرى ماذا كَتَبْتَ عَنْ هٰذِهِ ؟ »

قُلْتُ : « كَتَبْتُ إِنَّها مُسْتَديرَةٌ ، تَزِنُ ثَلاثَةَ قَراريطَ وَنِصْفَ ٱلقيراطِ ، وَلَوْنُها لا بَأْسَ بِهِ . »

قالَ : « لا بَأْسَ بِهِ ! هٰذِهِ لُؤْلُؤَةٌ تَليقُ بِمَلِكٍ . »

قُلْتُ : « بِمَلِكٍ فَقيرٍ . إِنَّكَ لَوْ وَضَعْتَها أَمامَ ٱلضَّوْءِ لَشاهَدْتَ بُقْعَةً داكِنَةً بِداخِلِها . »

قالَ : « هٰذِهِ يُمْكِنُ إِزالَتُها . »

قُلْتُ : « أَشُكُّ في ذٰلِكَ يا أَبي . »

فابْتَسَمَ وَقالَ : « وَأَنا كَذٰلِكَ ! إِنَّكَ سَريعُ ٱلتَّعَلُّمِ يا بُنَيَّ ! وبِمُرورِ ٱلوَقْتِ سَتَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْرِفُ . »

قُلْتُ ، وَلَمْ يَبْقَ على إقْلاعِ ٱلسُّفُنِ سِوى ساعَةٍ واحِدَةٍ : « إِنَّني أَرْغَبُ يا أَبي في مُرافَقَتِكُمُ ٱلْيَوْمَ . لَقَدْ سَبَقَ أَنْ وَعَدْتَني بِذٰلِكَ عِنْدَما أَبْلُغُ ٱلسَّادِسَةَ عَشْرَةَ ، وهٰأَنَذا قَدْ بَلَغْتُها . »

أَجابَ والِدي : « لَوْ رافَقْتَنا لَكُنَّا – أَنا وَأَنْتَ – مَعًا في ٱلْبَحْرِ ، وَرُبَّما

تَهُبُّ عاصِفَةٌ فَتودي بِٱلأَبِ وَٱلابْنِ مَعًا ، وَتَنْتَهي أُسْرَةُ سالازار . »

قُلْتُ : « يا سَيِّدي ، إِنَّهُ يَوْمٌ جَميلٌ غَيْرُ عاصِفٍ . »

قالَ : « اليَوْمَ .. ولٰكِنْ ماذا عَنِ ٱلغَدِ ؟ وماذا عَنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ؟ »

قُلْتُ : « إِنَّني أَحْمِلُ ٱلسِّكِّينَ ٱلَّذي أَعْطانيهِ جَدِّي . وَلَوْ أَخَذْتَني مَعَكُمْ فَسأُعاوِنُكُمْ في إِخْراجِ ٱلسِّلالِ مِنَ ٱلماءِ عِنْدَما يَغُوصُ ٱلرِّجالُ . »

قالَ والِدي ضاحِكًا : « إِنَّ سِكِّينَكَ هٰذا صَغيرٌ وَلا يَصْلُحُ لِمُواجَهَةِ سَمَكَةٍ مِنْ نَوْعِ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ! إِنَّهُ خَطِرٌ جِدًّا ! »

قُلْتُ : « نَسيتُ يا أَبي أَنْ أُخْبِرَكَ أَنَّ زَوْجَةَ غُوليتا جاءَتْ في ٱلصَّباحِ لِتُخْبِرَكَ أَنَّهُ مَريضٌ وَلَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ مُرافَقَتِكُمُ ٱلْيَوْمَ . وأَنا أَسْتَطيعُ أَنْ أَحُلَّ مَحَلَّهُ . »

نَظَرَ أَبي إلى ٱلسَّماءِ وإلى أَوْراقِ ٱلأَشْجارِ ٱلسَّاكِنَةِ وَقَدْ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ ، ثُمَّ حَمَلَ ٱللُّؤْلُؤَ وَأَعادَهُ إلى مَكانِهِ وَقالَ : « اتْبَعْني يا رامون . »

كانَتِ ٱلشَّمْسُ تَميلُ نَحْوَ ٱلمَغيبِ وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى ٱلشَّاطِئِ .

قالَ والِدي : « هَلْ أَخْبَرْتَ والِدَتَكَ ؟ لا ! سَأُرْسِلُ مَنْ يُخْبِرُها ، لِأَنَّكَ لَوْ ذَهَبْتَ لَضاعَ وَقْتٌ نَحْنُ في حاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَسَوْفَ تَعْتَرِضُ عَلى مَجيئِكَ مَعَنا . »

الفصلُ الثّالثُ

الإشبيليُّ

كانَتْ هُناكَ خَمْسُ سُفُنٍ ، تَحْمِلُ كُلٌّ مِنْها أَرْبعَةَ رِجالٍ أَوْ خَمْسةً ، وكانَ عَلى سَفينَتِنا أَبي وَأَنا ورَجُلٌ هِنْديٌّ وَشابٌّ يُدْعى غاسْبَر رُويز ، قالَ إِنَّهُ جاءَ مِنْ مَدينةِ إِشْبيلِيَّة فَلَقَّبْناهُ بِالإِشْبيليِّ .

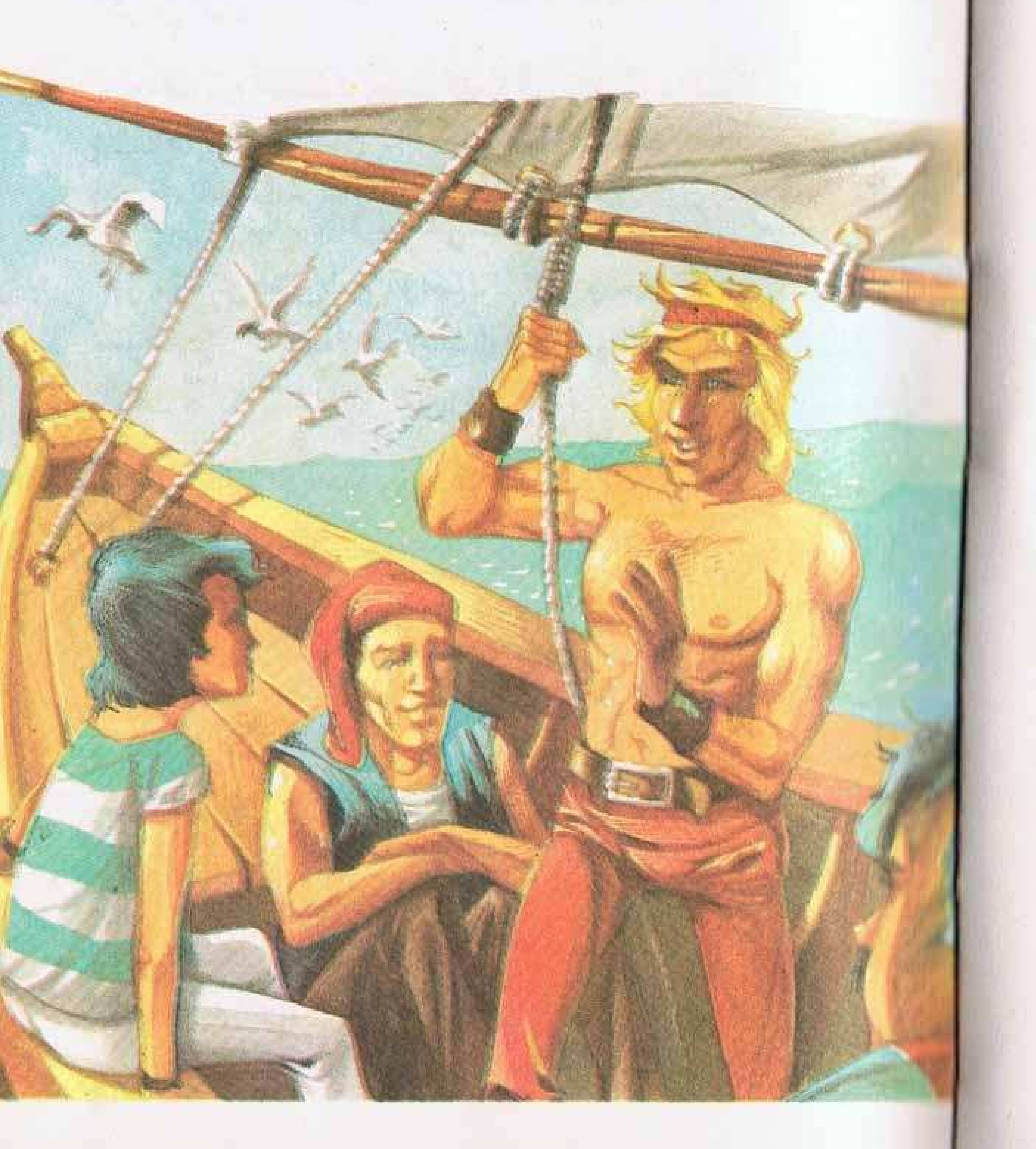
كانَ غاسْبَر طَويلَ ٱلقامةِ قَويَّ ٱلبِنْيَةِ ، ذا شَعْرٍ ذَهَبيٍّ كَثيفٍ ، وعَيْنَيْنِ زَرْقاوَيْنِ جَميلَتَيْنِ . كانَ حَسَنَ ٱلمَظْهَرِ ، بَذيءَ ٱللِّسانِ ، جائِرًا في أَحْكامِهِ عَلى غَيْرِهِ مِنَ ٱلنَّاسِ .

كانَ صَيَّادَ لُؤْلُؤٍ ماهِرًا يَسْتَطيعُ أَنْ يَبْقى تَحْتَ ٱلماءِ ثَلاثَ دَقائِقَ وَأَحْيانًا أَرْبَعًا ، عَلى حينِ لا يَسْتَطيعُ غَيْرُهُ ٱلبَقاءَ تَحْتَ ٱلماءِ أَكْثَرَ مِنْ دَقيقَتَيْنِ فَقَطْ . وَكَثيرًا ما قَصَّ عَلَيْنا ٱلقِصَصَ ٱلرَّائِعَةَ عَنْ أَعْمالِهِ في إِسْبانْيا وَغَيْرِها مِنْ دُوَلِ ٱلعالَمِ حَتَّى إِنَّهُ سَجَّلَ بِٱلوَشْمِ عَلى جَسَدِهِ رُسومًا تُصَوِّرُ مَعارِكَهُ مَعَ ٱلدِّبَبةِ وَغَيْرِها مِنَ ٱلحَيَواناتِ ٱلمُفْتَرِسةِ .

ما كادَتِ ٱلسُّفُنُ تُبْحِرُ حَتَّى بَدَأَ ٱلإِشْبيليُّ يَرْوي قِصَّةَ لُؤْلُؤَةٍ أَكْبَرَ مِنْ بَيْضَةِ ٱلدَّجاجةِ ، وَجَدَها في ٱلخَليجِ ٱلعَرَبيِّ .

سَأَلْتُهُ : « ماذا فَعَلْتَ بِها ؟ »

أَجابَ : « بِعْتُها للشَّاهِ ، مَلِكِ فارِس ، ثُمَّ ٱشْتَرَيْتُ سُفُنًا لِصَيْدِ ٱللُّؤْلُؤِ ، وكِدْتُ أُصْبِحُ ثَرِيًّا غَيْرَ أَنَّ عاصِفةً هَبَّتْ فَأَغْرَقَتِ ٱلسُّفُنَ ، وَجاهَدْتُ بِشَجاعةٍ حَتَّى أَنْقَذْتُ رِجالي كُلَّهُمْ . »



كُنْتُ قَبْلَ أَنْ أُصْبِحَ شَرِيكًا لِوالِدي ، أُشاهِدُ ٱلإِشْبيلِيَّ عَلى ٱلشّاطِئِ وحَوْلَهُ جَمْعٌ مِنَ ٱلنّاسِ يُصْغُونَ لِقِصَصِهِ ، وَكُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّهُ يُوَجِّهُ حَديثَهُ إِلَيَّ أَكْثَرَ مِنْ غَيْري .

وذاتَ يَوْمٍ أَحْسَسْتُ بِكَذِبِ ٱلقِصَّةِ ٱلَّتي كانَ يَرْويها فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ هٰذِهِ قِصَّةٌ واقِعِيَّةٌ ؟ »

أَجابَني غاضِبًا : « أَلا تُصَدِّقُني ؟ أَنْتَ ابْنُ رَجُلٍ ثَرِيٍّ ، تَعيشُ في بَيْتٍ كَبيرٍ ، وَتَأْكُلُ أَفْضَلَ طَعامٍ ، وَلٰكِنَّكَ لَمْ تَعْمَلْ في حَياتِكَ سِوى ٱلقَليلِ ، وَلَنْ تَفْعَلَ ٱلكَثيرَ . أَمّا أَنا فَقَدْ قُمْتُ بِأَعْمالٍ كَثيرَةٍ ، ولا أَرْوي عَنْها إِلّا ٱلصِّدْقَ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَكونَ حَذِرًا في حَديثِكَ مَعي . »

غادَرْتُ ٱلمَكانَ غاضِبًا ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَعودَ إِلَيْهِ وَأُقاتِلَهُ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ أَقْوى وَأَكْبَرَ مِنّي . وَخَشيتُ أَنْ يَغْضَبَ والِدي إِذا ما تَشاجَرْتُ في مَكانٍ عامٍّ ، وَلٰكِنَّني أَخْبَرْتُهُ بِما حَدَثَ .

في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ ، بَيْنَما كانَتِ ٱلسُّفُنُ تَشُقُّ طَريقَها في ٱلبَحْرِ ، جَلَسَ ٱلإِشْبيلِيُّ يَتَحَدَّثُ عَنْ شَجاعَتِهِ ، ويَرْوي كَيْفَ تَمَكَّنَ مِنْ إِنْقاذِ رِجالِهِ مِنَ العاصِفَةِ ، مُحاوِلًا إِشْراكي في ٱلحَديثِ ، وَلٰكِنّي أَصْغَيْتُ وَٱلْتَزَمْتُ ٱلصَّمْتَ .

عِنْدَ طُلوعِ ٱلنَّهارِ وَصَلْنا إِلى مَهْدِ ٱلمَحارِ في قاعِ ٱلبَحْرِ حَيْثُ يوجَدُ ٱللُّؤْلُؤُ . ودَرَّبَني أَبي عَلى طَريقَةِ انْتِشالِ ٱلسَّلَّةِ بَعْدَ أَنْ تَمْتَلِئَ بِٱلمَحارِ ، وعَلى تَفْريغِها . ثُمَّ تناوَلَ حَجَرًا كَبيرًا يُسَمّى حَجَرَ ٱلغَوْصِ ، وقَدْ رُبِطَ بِطَرَفِ

حَبْلٍ ، وَثَبَّتَ طَرَفَ ٱلحَبْلِ ٱلآخَرَ بِٱلسَّفينَةِ وَأَلْقى ٱلحَجَرَ في ٱلماءِ وحَمَلَ ٱلسَّلَّةَ ٱلمَرْبوطَةَ بِحَبْلٍ وَقَفَزَ إِلى ٱلماءِ ، وَغاصَ حَتّى وَصَلَ إِلى القاعِ . كُنْتُ أَراهُ مِنْ خِلالِ ٱلماءِ ٱلصّافي وَهُوَ يَنْتَزِعُ ٱلمَحارَ مِنْ فَوْقِ ٱلصُّخورِ بِسِكّينِهِ وَيَضَعُهُ في سَلَّتِهِ .

وَعِنْدَما امْتَلَأَتْ جَذَبَ ٱلحَبْلَ ، فَأَخْرَجْتُ ٱلسَّلَّةَ ثُمَّ صَعِدَ هُوَ إِلى ٱلسَّفينَةِ . وَكُنْتُ قَدْ وَضَعْتُ ٱلمَحارَ في مَكانِهِ وَأَخْرَجْتُ حَجَرَ ٱلغَوْصِ اسْتِعْدادًا لِلمَرَّةِ ٱلتّالِيَةِ .

كانَ ٱلإِشْبيلِيُّ قَدْ غاصَ إِلى ٱلقاعِ قَبْلَ أَبي ، ولَمْ يَطْفُ إِلّا بَعْدَ أَنْ غاصَ أَبي ثانِيَةً ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ قائِلًا : « كَيْفَ يَسيرُ ٱلعَمَلُ ؟ »

أَجَبْتُ : « إِنَّني أَتَعَلَّمُ . »

قالَ : « لَيْسَ هُناكَ ٱلكَثيرُ لِتَتَعَلَّمَهُ . إِنَّكَ تَجْذِبُ ٱلحَبْلَ لِتُخْرِجَ ٱلسَّلَّةَ ، وَتَجْذِبُ حَجَرَ ٱلغَوْصِ ، ثُمَّ تَضَعُ ٱلمَحارَ في مَكانِهِ ، وتَنْتَظِرُ قَليلًا ، ثُمَّ تَعودُ إِلى ٱلقِيامِ بِهٰذِهِ ٱلأَعْمالِ مَرَّةً أُخْرى . »

قُلْتُ : « إِنَّ ٱلغَوْصَ أَكْثَرُ مُتْعَةً . »

فَقالَ : « إِنَّ ٱلغَوْصَ أَكْثَرُ مُتْعةً ، وَلٰكِنَّهُ أَكْثَرُ خَطَرًا ، وَمِنَ ٱلأَسْلَمِ لَكَ أَنْ تَبْقى بِٱلقارِبِ . »

كانَ كُلَّما خَرَجَ مِنَ ٱلماءِ لِيَسْتَنْشِقَ ٱلهواءَ ، في فَتْرَةِ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ ، يُحَذِّرُني

مِنْ أَنْ تَشْتَبِكَ قَدَمايَ في ٱلحَبْلِ ، وَمِنْ أَنْ أَسْقُطَ في ٱلماءِ .

قالَ أَبي عَنْهُ إِنَّهُ مُثيرٌ لِلْمَتاعِبِ ، ولٰكِنَّهُ أَمْهَرُ غَوّاصينا .

حَلَّ ٱلظَّلامُ ، وَكانَتِ ٱلسُّفُنُ قَدِ ٱمْتَلَأَتْ بِٱلمَحارِ ، فَبَدَأْنا رِحْلَةَ ٱلعَوْدَةِ .
وَعِنْدَما بَزَغَ ٱلقَمَرُ وَتَبَدَّدتْ ظُلْمَةُ ٱللَّيْلِ ، بَدَأَ ٱلإِشْبيلِيُّ يَقُصُّ مِنْ جَديدٍ قِصَّتَهُ عَنِ ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلكَبيرَةِ ٱلَّتي وَجَدَها في ٱلخَليجِ ٱلعَرَبِيِّ . وجَلَسْتُ أَسْتَمِعُ إِلَيْهِ وأُحَلِّقُ في عالَمِ ٱلأَحْلامِ .

حَلَمْتُ أَنَّني كُنْتُ بِقارِبٍ في خَليجٍ سِرِّيٍّ في مَكانٍ ما بِأَحَدِ ٱلبِحارِ ، وَأَخَذْتُ ٱلسَّلَّةَ وَحَجَرَ ٱلغَوْصِ وَهَبَطْتُ إلى ٱلقاعِ ، ثُمَّ مَلَأْتُ ٱلسَّلَّةَ بِٱلمَحارِ وَعُدْتُ إلى ٱلقارِبِ . أَخْرَجْتُ ٱلسَّلَّةَ وَأَخَذْتُ أَفْتَحُ ٱلمَحارَ واحِدَةً بَعْدَ ٱلأُخْرى . لا شَيْءَ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلّا واحِدَةٌ عِنْدَما فَتَحْتُها وَجَدْتُ بِداخِلِها لُؤْلُؤَةً أَكْبَرَ مِنْ قَبْضَةِ ٱليَدِ تُضيءُ كَما لَوْ كانَ بِداخِلِها نورٌ : إِنَّها لُؤْلُؤَةُ ٱلسَّماءِ .

تَوَقَّفَ ٱلإِشْبيلِيُّ في هٰذِهِ ٱللَّحْظَةِ عَنِ ٱلكَلامِ ، وَنَهَضَ واقِفًا وَأَشارَ بِيَدِهِ : « أُنْظُروا ! شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ! شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ! » فَقَفَزْتُ مِنْ مَكاني ، وعِنْدَما اعْتَلَتِ ٱلسَّفينَةُ مَوْجَةً ، شاهَدْتُ جِسْمًا فِضِّيًّا قَدْ بَرَزَ نِصْفُهُ مِنَ ٱلماءِ عَلى مَسافَةِ أَرْبَعمِئَةِ مِتْرٍ تَقْريبًا .

إِنَّ مَنْظَرَ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ مُخيفٌ . وَهُناكَ نَوْعٌ صَغيرٌ مِنْهُ لا يَزيدُ عَنْ عَشْرِ أَقْدامٍ بِما فيهِ عَرْضُ ٱلجَناحَيْنِ ، وَهُناكَ ما يَبْلُغُ ضِعْفَ ذٰلِكَ .

وَفَمُ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ يَتَّسِعُ لِرَأْسِ رَجُلٍ، وَلَهُ ما يُشْبِهُ ٱلذِّراعَيْنِ يَدْفَعُ بِهِما



الطَّعامَ داخِلَ فَمِهِ . وَتَتْبَعُ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ سَمَكَةٌ صَغيرَةٌ تَدْخُلُ فَمَهُ وَتَخْرُجُ مِنْهُ كَيْ تُنَظِّفَ أَسْنانَهُ مِنْ بَقايا ٱلطَّعامِ .

اِرْتَعَبَ ٱلهِنْدِيُّ ، وَخَرَّ عَلى رُكْبَتَيْهِ وَبَدَأَ يُصَلّي . وَصاحَ ٱلإِشْبيلِيُّ مِنْ جَديدٍ : « شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ! »

قالَ أَبي : « كَلّا ! لَيْسَ هٰذا هُوَ ٱلشَّيْطانَ . إِنَّ ٱلشَّيْطانَ أَكْبَرُ بِكَثيرٍ ، وَلَقَدْ شاهَدْتُهُ بِنَفْسي . »

أَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلإِشْبيلِيَّ كانَ يُحاوِلُ أَنْ يُخيفَ ٱلهِنْدِيَّ ، فَما كانَ مِنْ أَبي إِلّا أَنْ

صَعِدَ إلى حَيْثُ يَقِفُ الإشْبيليُّ ، ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ حَتَّى يَسْمَعَ ٱلهِنْديُّ :
« لَيْسَ هٰذا هُوَ ٱلشَّيْطانَ ، ولا حَتَّى أُخْتَهُ ٱلصُّغْرى . »

في طَريقِنا إلى ٱلمَنْزِلِ ، وَفي ضَوْءِ ٱلقَمَرِ ، قالَ لي أبي : « تَعامَلْ مَعَ ٱلإشْبيليِّ بِحَذَرٍ . اسْتَمِعْ إلى قِصَصِهِ وتَظاهَرْ بِأَنَّكَ تُصَدِّقُها ، فَهُوَ رَجُلٌ خَطيرٌ . إنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ طَوالَ حَياتِهِ إلى إشْبيلِيَةَ وَلا إلى ٱلخَليجِ ٱلعَرَبيِّ ، ولٰكِنَّ مَعارِكَهُ في كاليكان – وهُوَ مَكانٌ قَريبٌ مِنَّا – عَديدَةٌ ، وَقَدْ قَتَلَ رَجُلًا في إحْداها . »

في ٱلطَّريقِ عاوَدَني ٱلتَّفْكيرُ في حُلْمي ، وَفي ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلكَبيرَةِ ٱلَّتي وَجَدْتُها ، وَفي دَهْشَةِ ٱلإشْبيليِّ ٱلَّتي أبْداها عِنْدَما تَصَوَّرْتُهُ رَآها .

الفَصْلُ ٱلرَّابِعُ

سُوتُو لوزُون يُحْضِرُ لُؤْلُؤَةً سَوْداءَ

بَعْدَ أرْبَعَةِ أيَّامٍ شاهَدْتُ مِنَ ٱلنَّافِذَةِ قارِبًا أحْمَرَ قادِمًا بِسُرْعَةٍ إلى لاباز . كانَ قارِبَ رَجُلٍ هِنْديٍّ يُدْعى سُوتُو لُوزُون .

سُرِرْتُ لِرُؤْيَةِ لُوزُون ٱلعَجوزِ ، فَقَدْ كانَ يَبيعُ ٱللُّؤْلُؤَ لِأَبي مُنْذُ سَنَواتٍ . وَهُوَ يَحْضُرُ كُلَّ ثَلاثَةِ أشْهُرٍ تَقْريبًا ، وَلا يَجْلُبُ في كُلِّ مَرَّةٍ أكْثَرَ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ واحِدَةٍ ثَمينَةٍ . وَبَعْدَ أنْ عَمِلْتُ مَعَ أبي أحْضَرَ لُؤْلُؤَةً سَوْداءَ كَبيرَةً وَدِدْتُ لَوْ أنَّهُ أحْضَرَ مِثْلَها ٱليَوْمَ ؛ لِأَنَّنا لَمْ نَجِدْ داخِلَ كَمِّيَةِ ٱلمَحارِ ٱلأخيرَةِ سِوى حَبَّاتِ لُؤْلُؤٍ صَغيرَةٍ لَيْسَ بَيْنَها واحِدَةٌ ذاتُ قيمَةٍ .

عِنْدَما وَصَلَ لُوزُون إلى ٱلبابِ دَعَوْتُهُ إلى ٱلدُّخولِ وَٱلجُلوسِ .

قالَ : « أشْكُرُكَ ، ولٰكِنَّني أُفَضِّلُ ٱلوُقوفَ . لَقَدْ سافَرْتُ طَوالَ ٱللَّيْلِ ، وَمَرَرْتُ بِسُفُنِكُمْ في ٱلصَّباحِ بِٱلقُرْبِ من مالْدَرَّادو . »

قُلْتُ : « إنَّها في طَريقِها إلى جُزُرِ سِيرالْفو . »

سَأَلَني : « أَ لَيْسَتِ ٱلمِنْطَقَةُ هُنا صالِحَةٌ لِلصَّيْدِ ؟ »

أجَبْتُهُ : « بَلى ، صالِحَةٌ جِدًّا . » فَلَيْسَ مِنَ ٱلحِكْمَةِ أنْ أُقِرَّ لِرَجُلٍ جاءَ يَبيعُنا لُؤْلُؤَةً أنَّ ٱلمِنْطَقَةَ غَيْرُ صالِحَةٍ لِلصَّيْدِ .

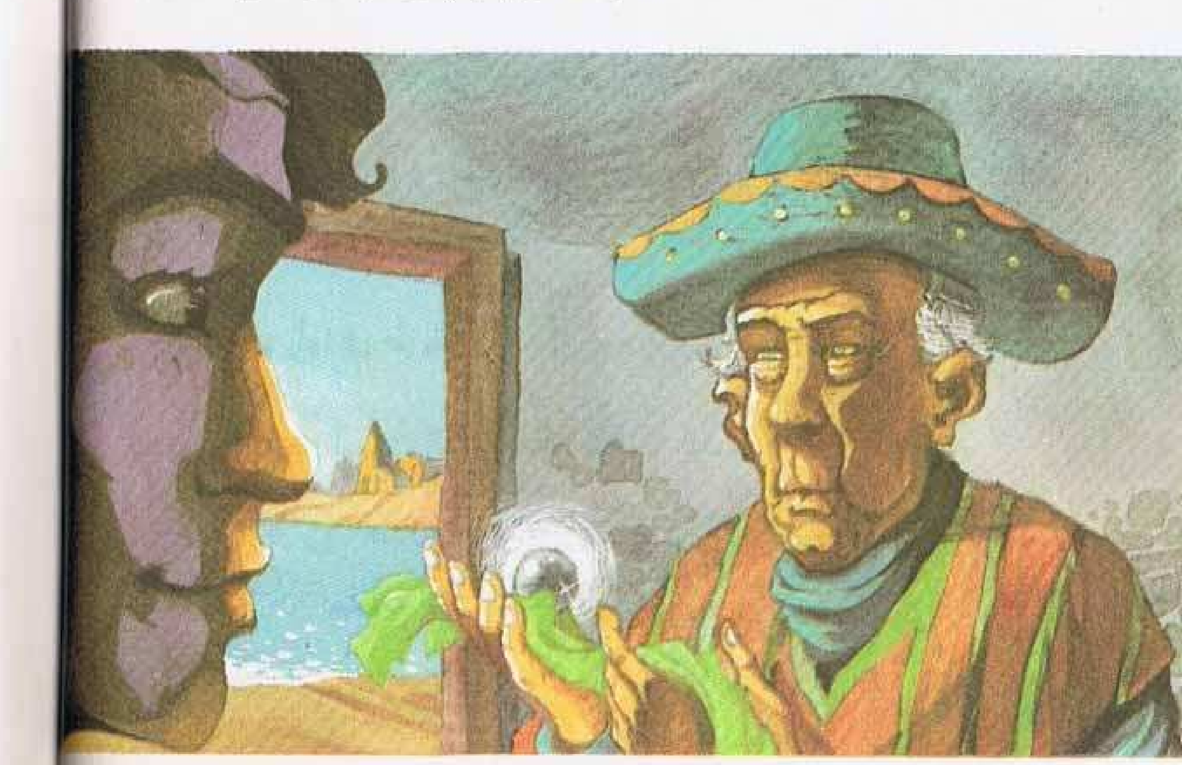
سَأَلَني : « لِماذا إذًا تَذْهَبُ سُفُنُكُمْ إلى سِيرالْفو ؟ »

أَجَبْتُهُ : « إنَّ والِدي يَوَدُّ اسْتِخْراجَ لُؤْلُؤٍ أَسْوَدَ . »

أَخْرَجَ الرَّجُلُ قِطْعَةَ قُماشٍ مِنْ داخِلِ قَميصِهِ قائِلًا : « هٰذِهِ لُؤْلُؤَةٌ سَوْداءُ . »

كانَتْ لُؤْلُؤَةً مُسْتَديرَةً جَميلَةً ، كَتِلْكَ الَّتي اشْتَرَيْتُها مِنْهُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ . وَزَنْتُها ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ أَكْثَرَ مِمَّا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ ثَمَنٍ ، لِأَنَّني كُنْتُ في حاجَةٍ لِمُعاوَنَتِهِ .

قُلْتُ : « لا بُدَّ أَنَّ هُناكَ الْكَثيرَ مِنَ اللُّؤْلُؤِ الأَسْوَدِ في الْمَكانِ الَّذي اسْتَخْرَجْتَ مِنْهُ هٰذِهِ اللُّؤْلُؤَةَ . هَلْ تَسْمَحُ لي بِمُرافَقَتِكَ لِلصَّيْدِ هُناكَ ؟



وَسَوْفَ أَدْفَعُ لَكَ ثَمَنَ كُلِّ اللُّؤْلُؤِ الَّذي أَجِدُهُ . »

قالَ الرَّجُلُ : « لٰكِنَّكَ لَسْتَ غَوّاصًا . »

قُلْتُ : « يُمْكِنُكَ أَنْ تُعَلِّمَني . »

قالَ : « لَقَدْ قالَ والِدُكَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ إنَّه لم يُرَبِّكَ لِتَفْقِدَ ساقًا أَوْ ذِراعًا أَوْ لِتَخْرُجَ وَلا تَعودَ أَبَدًا . »

قُلْتُ : « لَقَدْ ذَهَبَ والِدي إلى سِيرالْفو ، ولَنْ يَعودَ قَبْلَ أُسبوعٍ أَوْ أَكْثَرَ ، وَسَتَذْهَبُ والِدَتي وَشَقيقَتي إلى مَدينَةِ لوريتو الْيَوْمَ . سَأَبْحَثُ عَنْ لُؤْلُؤَةٍ سَوْداءَ كَبيرَةٍ وَعِنْدَما أَجِدُها سَأَدْفَعُ لَكَ ثَمَنَها . »

قالَ : « لَقَدْ ظَلَلْتُ أُحاوِلُ أَنْ أَجِدَ لُؤْلُؤَةً كَالَّتي تَتَحَدَّثُ عَنْها لِسَنَواتٍ عَديدَةٍ ، فَكَيْفَ تَسْتَطيعُ أَنْ تَجِدَها أَنْتَ في أُسْبوعٍ ؟! »

قُلْتُ : « مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَجِدَها أَوَّلَ مَرَّةٍ تَغوصُ فيها . »

كانَ الرَّجُلُ يُفَكِّرُ في زَوْجَتِهِ وَأَطْفالِهِ الْخَمْسَةِ الَّذين كانَ عَلَيْهِ إطْعامُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ .

قالَ : « حَسَنًا ، سَأَشْتَري بَعْضَ الطَّعامِ ثُمَّ نَرْحَلُ . »

أَعَدْتُ اللُّؤْلُؤَ إلى الخِزانَةِ ، وَسِرْتُ مَعَهُ . وفي الطَّريقِ إلى الشّاطِئِ كُنْتُ أُفَكِّرُ في اللُّؤْلُؤَةِ الكَبيرَةِ الَّتي حَلَمْتُ بِها عِنْدَما كانَ الإشْبيلي يَقُصُّ قِصَّتَهُ ، وَأُفَكِّرُ كَيْفَ

سَيكونُ وَقْعُ ٱلخَبَرِ عَلَيْهِ عِنْدَ ما يَسْمَعُ ٱلمَدينةَ كُلَّها تَتَحَدَّثُ عَنِ ٱللُّؤْلُؤةِ ٱلكَبيرةِ ٱلَّتي وَجَدَها رامُون سالازار .

لا يَحْلُمُ مِثْلَ هٰذا ٱلحُلْمِ إلَّا صِغارُ ٱلعُقولِ ، وَلٰكِنْ عَلى أَيَّةِ حالٍ ، وَكَما يَحْدُثُ أَحْيانًا ، يَتَحَوَّلُ ٱلحُلْمُ إلى حَقيقةٍ .

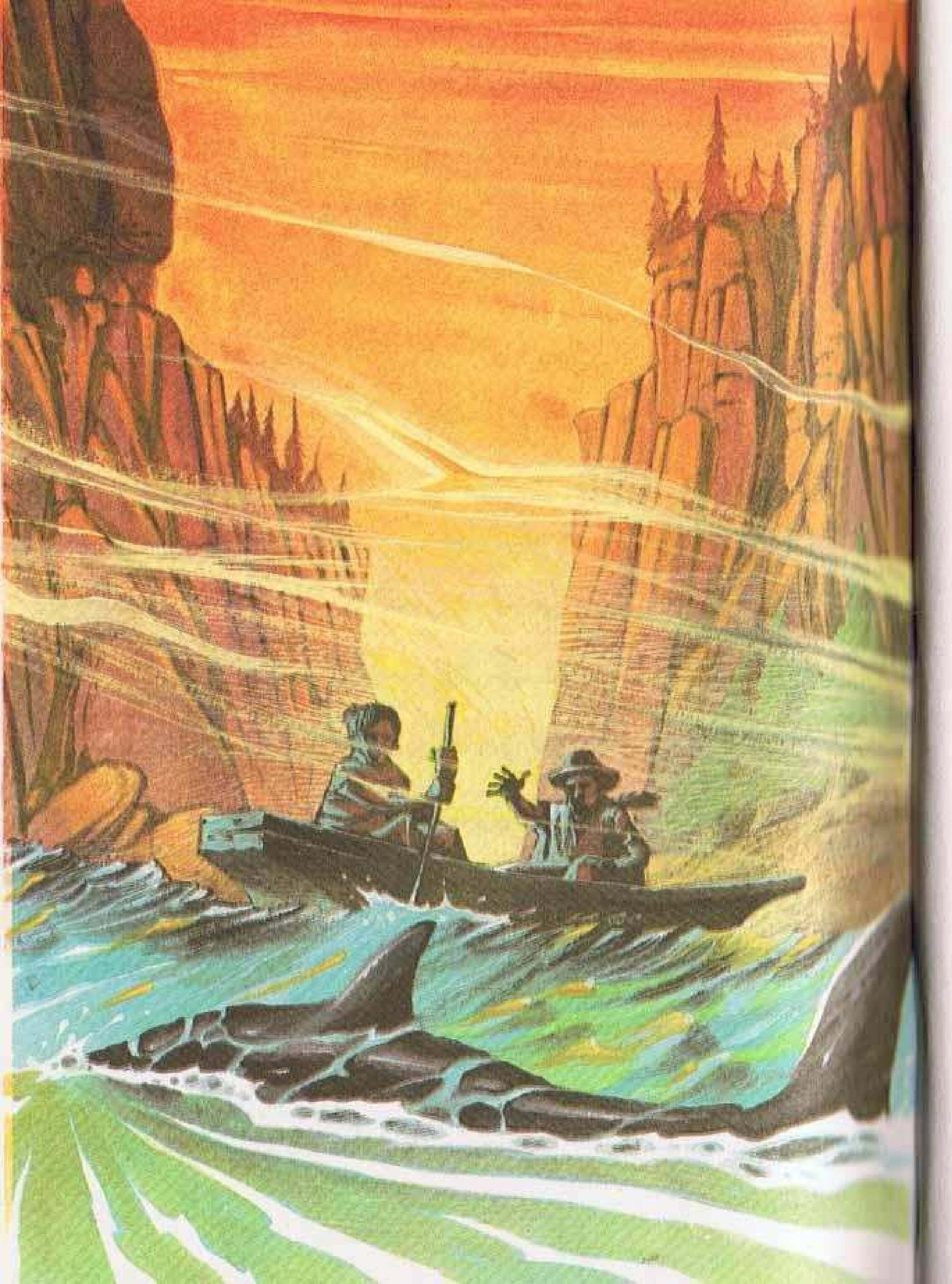
الفَصْلُ ٱلخامِسُ

بُحَيْرةُ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ

عِنْدَ شُروقِ ٱلشَّمْسِ وَصَلْنا إلى ٱلبُحَيْرةِ ، حَيْثُ يُقيمُ سُوتُو لُوزُون ، وَقَدْ تَحَدَّدَ مَدْخَلُها بِصَخْرَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ ، بَيْنَهُما مَمَرٌّ تَجْتازُهُ ٱلزَّوارِقُ عِنْدَ دُخولِها إلى ٱلبُحَيْرةِ . وَعِنْدَما مَرَرْنا بِهٰذا ٱلمَدْخَلِ ، رَفَعَ لُوزُون قُبَّعَتَهُ . وَعَلى جانِبَيِ ٱلبُحَيْرةِ بَدَتْ لَنا ٱلتِّلالُ عَموديَّةً ، عَلى حينَ غَطَّتِ ٱلرِّمالُ ٱلسَّوْداءُ ٱلشّاطِئَ عِنْدَ نِهايةِ ٱلبُحَيْرةِ . وَكانَتْ هُناكَ شَجَرَتانِ وَبَعْضُ ٱلأَكْواخِ ٱلَّتي كانَتِ ٱلنّارُ مُشْتَعِلةً في داخِلِها لِإعْدادِ طَعامِ ٱلإفْطارِ .

كانَتِ ٱلبُحَيْرةُ مِثْلَ بَقيَّةِ ٱلبُحَيْراتِ ٱلأُخْرى ، وَلٰكِنْ كانَ فيها شَيْءٌ لَمْ يَرُقْني وَسَبَّبَ لي انْزِعاجًا . لَمْ يَكُنْ هٰذا ٱلشَّيْءُ ٱلضَّبابَ ٱلأَحْمَرَ ، أَوِ ٱلغَمامَ ٱلأَحْمَرَ ٱلَّذي تَجَمَّعَ في ٱلسَّماءِ ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلرِّمالَ ٱلسَّوْداءَ عَلى شاطِئِ ٱلبُحَيْرةِ — كانَ شَيْئًا مُخْتَلِفًا تَمامًا .

انْسابَ قارِبُ لُوزُون فَوْقَ ماءِ ٱلبُحَيْرةِ بِبُطْءٍ وَهُدوءٍ شَديدٍ ، وَلاذَ هوَ بِالصَّمْتِ . إنَّ سَمَكَ ٱلقِرْشِ سَمَكٌ ضَخْمٌ جِدًّا يَقْتُلُ ٱلإنْسانَ أَحْيانًا وَيَفْتَرِسُهُ . وَكانَتْ هُناكَ سَمَكةٌ مِنْ هٰذا ٱلنَّوْعِ تَسْبَحُ حَوْلَ ٱلقارِبِ ، وَأَشارَ إلَيْها لُوزُون دُونَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمةٍ . وَظَلَّ صامِتًا حَتّى وَصَلْنا إلى مِنْطَقةِ ٱلأَكْواخِ ، وَعِنْدَئِذٍ قالَ :



« يَجِبُ أَلَّا تَتَكَلَّمَ وَنَحْنُ في ٱلْبُحَيْرةِ . وَتَذَكَّرْ هٰذا عِنْدَما تَخْرُجُ لِلْغَوْصِ ، فَهُناكَ مَنْ يُصْغِي إلى حَديثِنا وَيَغْضَبُ بِسُرْعَةٍ . »

سَأَلْتُهُ : « مَنْ ذا ٱلَّذي يَسْمَعُ وَيَغْضَبُ ؟ »

أَجابَ : « شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ . »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ يَعيشُ هُنا في بُحَيْرَتِكُمْ ؟ »

أَجابَ : « نَعَمْ ، إِنَّهُ يَسْكُنُ في كَهْفٍ كَبيرٍ يُمْكِنُكَ أَنْ تَراهُ عِنْدَ ٱلْمَدْخَلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْ طَريقِ فُتْحةٍ خَفِيَّةٍ أُخْرى . »

تَناوَلْنا ٱلإِفْطارَ في كُوخِ لُوزُون ، وَغَفَوْنا فَتْرةً ، ثُمَّ تَناوَلْنا وَجْبةً أُخْرى وَعُدْنا إلى ٱلْبُحَيْرةِ لِنَسْتَأْنِفَ رِحْلَتَنا إلى حَيْثُ يُوجَدُ ٱللُّؤْلُؤُ . وَكانَ ٱلضَّبابُ قَدْ تَلاشَى ، وَبَدَتِ ٱلْمِياهُ خَضْراءَ صافيةً .

قالَ لُوزُون : « إِنَّ ٱخْتِفاءَ ٱلضَّبابِ يَعْني ٱنْصِرافَ شَيْطانِ ٱلْبَحْرِ . »

قُلْتُ أَسْأَلُهُ : « ٱلآنَ وَقَدِ ٱنْصَرَفَ نَسْتَطيعُ أَنْ نَتَكَلَّمَ إِذًا ؟ »

أَجابَ : « نَسْتَطيعُ أَنْ نَتَكَلَّمَ قَليلًا ، وَلٰكِنْ كُنْ حَذِرًا في كَلامِكَ . إِنَّ لَهُ أَصْدِقاءَ كَثيرينَ في ٱلْبُحَيْرةِ ، وَسَوْفَ يُخْبِرونَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَما يَعودُ . »

سَأَلْتُهُ : « أَ خائِفٌ أَنْتَ ؟ أَلَا تَرْغَبُ في مُغادَرةِ ٱلْبُحَيْرةِ ؟ »

أَجابَ : « كَلَّا ! أَنا لا أَخافُ شَيْطانَ ٱلْبَحْرِ . إِنَّ أَبي وَجَدِّي لَمْ يَخافا

مِنهُ ! إنَّنا نَعرِفُ أنَّها بُحَيْرَتُهُ ، وَأنا أَرْفَعُ قُبَّعَتي تَحيَّةً لَهُ كُلَّما دَخَلْتُها أَوْ خَرَجْتُ مِنها . وَهوَ لِذٰلِكَ يَسْمَحُ لي بِصَيْدِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلأَسْوَدِ . إنَّهُ لُؤْلُؤُهُ في ٱلحَقيقةِ ، وَلٰكِنَّهُ يَسْمَحُ لي بِأَخذِ بَعْضٍ مِنْهُ . »

اتَّجهنا بِقارِبِنا ناحِيَةَ ٱلشّاطِئِ ٱلجَنُوبِيِّ ثُمَّ تَوَقَّفْنا .

قالَ لُوزُون : « الآنَ سَأُعَلِّمُكَ كَيْفَ تَغُوصُ . يَجِبُ أَنْ تَتَعَلَّمَ ٱلتَّنَفُّسَ أَوَّلًا . راقِبْني . اسْتَنْشِقْ عِدَّةَ مَرّاتٍ بِعُمْقٍ ثُمَّ أَخْرِجِ ٱلهَواءَ . حاوِلِ ٱلآنَ . »

أَخَذْتُ نَفَسًا عَميقًا ، فَقالَ : « خُذْ نَفَسًا أَعْمَقَ . » وَحاوَلْتُ ثانِيَةً ، وَقالَ : « أَعْمَقَ ! » . حاوَلْتُ مَرَّةً ثالِثَةً ، فَقالَ : « هٰذِهِ ٱلمَرَّةُ أَحْسَنُ . وَلٰكِنْ عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَيْفَ تُجيدُ ٱلتَّنَفُّسَ . سَنَغوصُ مَعًا إلى ٱلقاعِ . »

بَعْدَ ظُهْرِ ذٰلِكَ ٱليَوْمِ مَلَأْنا عِدَّةَ سِلالٍ بِٱلمَحارِ ، وَلٰكِنَّنا لَمْ نَجِدْ بِداخِلِها سِوى لُؤْلُؤٍ صَغيرٍ . وَهٰكَذا كانَتِ ٱلحالُ في ٱليَوْمِ ٱلتّالي وَٱليَوْمِ ٱلَّذي تَلاهُ .

في ٱليَوْمِ ٱلرّابِعِ خَرَجْتُ بِمُفْرَدي لِأَنَّ لُوزُون كانَ مُصابًا في يَدِهِ – هٰكَذا قالَ .

في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ وَجَدْتُ لُؤْلُؤَةَ ٱلسَّماءِ .

الفَصْلُ ٱلسّادِسُ

كَيْفَ وَجَدْتُ لُؤْلُؤَةَ ٱلسَّماءِ

تَناوَلْنا وَجْبَةَ ٱلعَشاءِ ، وَذَهَبَ ٱلأَطْفالُ وَٱلنِّساءُ إلى ٱلفِراشِ ، وَجَلَسْتُ مَعَ لُوزُون بِجِوارِ ٱلنّارِ أُجاذِبُهُ أَطْرافَ ٱلحَديثِ .

سَأَلْتُهُ : « لَقَدِ اصْطَدْتَ في كُلِّ مَكانٍ مِنَ ٱلبُحَيْرَةِ عَدا ٱلكَهْفِ ، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

أَجابَ : « نَعَمْ ، إنَّني لَمْ أَقْتَرِبْ في صَيْدي مِنَ ٱلكَهْفِ ، وَكَذٰلِكَ أَبي وَجَدّي . »

قُلْتُ : « رُبَّما يَكونُ هُناكَ لُؤْلُؤٌ كَبيرٌ . »

لَمْ يُجِبْ ، وَلٰكِنَّهُ نَهَضَ وَوَضَعَ بَعْضَ ٱلحَطَبِ في ٱلنّارِ وَجَلَسَ مِنْ جَديدٍ .

قُلْتُ : « رُبَّما وَجَدْتَ هُناكَ لُؤْلُؤَةَ ٱلسَّماءِ . »

لَمْ يُجِبِ ٱلرَّجُلُ ، وَلٰكِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةً ذاتَ مَعْنًى : إنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إلى ٱلكَهْفِ خَوْفًا مِنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ، وَإذا رَغِبْتُ أَنا في ٱلصَّيْدِ هُناكَ فَيُمْكِنُني أَنْ أَذْهَبَ بِمُفْرَدي .

في صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلرّابِعِ ، ذَهَبْتُ بِمُفْرَدي إلى ٱلشّاطِئِ ، بَعْدَ أَنْ قالَ لُوزُون إنَّ يَدَهُ مُصابَةٌ وَإنَّهُ لَنْ يَبْرَحَ مَكانَهُ ، وَنَظَرَ إِلَيَّ فَفَهِمْتُ ما يَعْنيهِ .

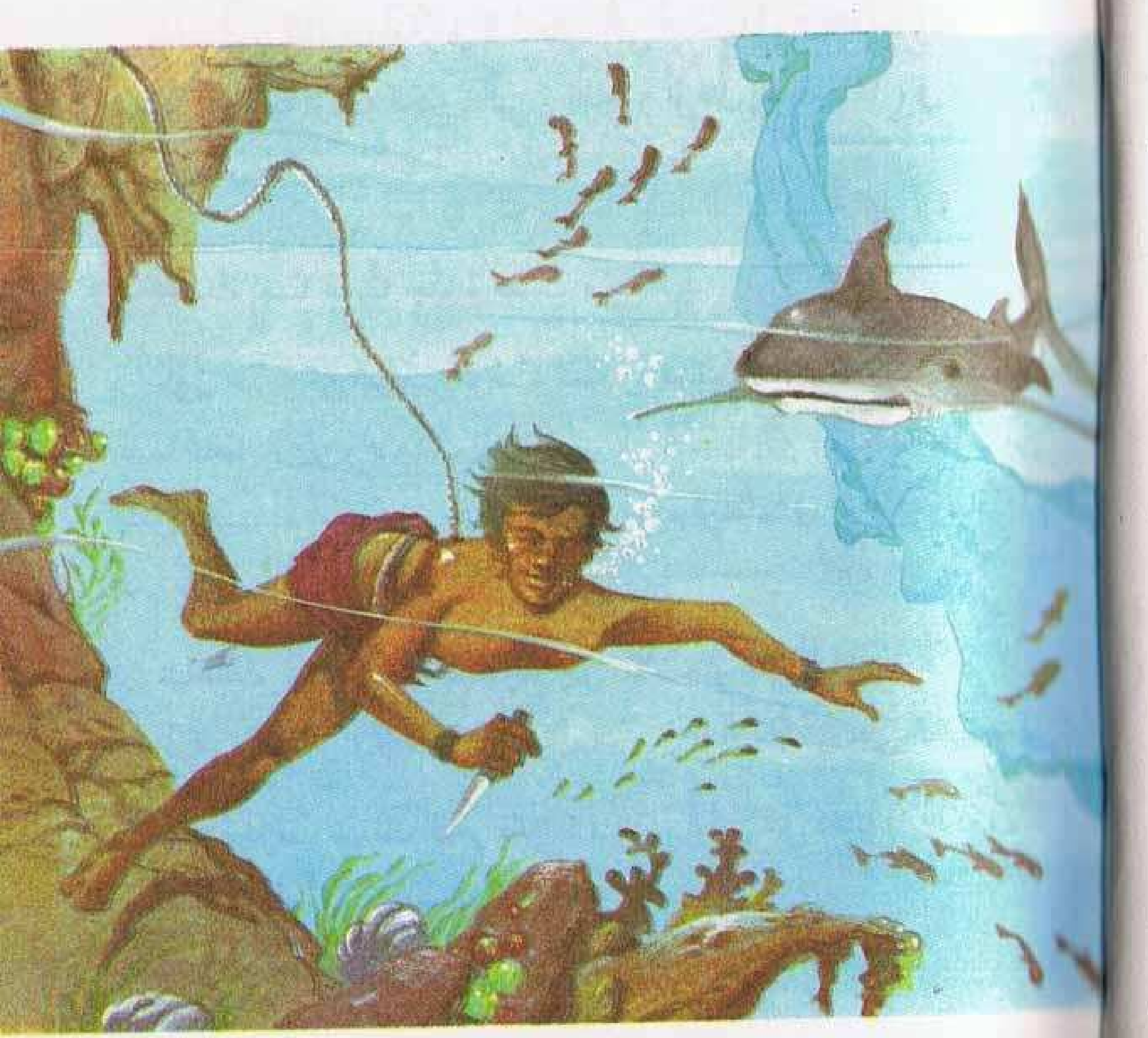
كانَ ٱلضَّبابُ ٱلأَحْمَرُ يُخَيِّمُ عَلى ٱلماءِ ، وَعَبَرْتُ ٱلبُحَيْرَةَ قاصِدًا ٱلكَهْفَ ٱلَّذي يَسْكُنُهُ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ، كَما قالَ لُوزُون . وَبَعْدَ ساعَةٍ مِنَ ٱلبَحْثِ وَجَدْتُ ٱلكَهْفَ ، فَقَدْ كانَ مُخْتَفِيًا تَحْتَ صَخْرَةٍ كَبيرَةٍ في مُواجَهَةِ ٱلشَّمْسِ ٱلمُشْرِقَةِ . كانَ اتِّساعُ فُتْحَتِهِ حَوالَى تِسْعَةِ أَمْتارٍ ، وَارْتِفاعُها حَوالَى مِتْرَيْنِ ، وَكانَ ٱلكَهْفُ مُنْحَدِرًا إلى أَسْفَلَ كَفَمٍ مَفْتوحٍ . وَلَمْ أَرَ ما بِداخِلِهِ بِسَبَبِ ٱلضَّبابِ ٱلأَحْمَرِ ، فانْتَظَرْتُ حَتَّى ارْتَفَعَتِ ٱلشَّمْسُ وَتَلاشَى ٱلضَّبابُ ، حينَئِذٍ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى لِمَسافَةٍ قَصيرَةٍ ما بِداخِلِهِ .

عَبَرْتُ ٱلمَدْخَلَ وَوَصَلْتُ إلى قاعَةٍ كَبيرَةٍ ذاتِ سَقْفٍ مُرْتَفِعٍ ، وَجُدْرانُها سَوْداءُ تَلْمَعُ مِنَ ٱلضَّوْءِ ٱلَّذي يَنْفُذُ إلَيْها مِنَ ٱلمَدْخَلِ . وَكانَتِ ٱلمِياهُ بِالقُرْبِ مِنْ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ مِنَ ٱلصَّفاءِ بِحَيْثُ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى ٱلمَحارَ ٱلمَوْجودَ في ٱلقاعِ .

تَناوَلْتُ ٱلسَّلَّةَ وَحَجَرَ ٱلغَوْصِ ٱلمَرْبوطَ في ٱلحَبْلِ ، وَأَخَذْتُ نَفَسًا عَميقًا ، وَهَبَطْتُ مِنْ جانِبِ ٱلقارِبِ .

بَلَغْتُ ٱلقاعَ عَلى عُمْقِ أَرْبَعَةِ أَمْتارٍ تَقْريبًا ، وَرَأَيْتُ ٱلمَحارَ ٱلَّذي لَمَحْتُهُ مِنْ أَعْلَى ، وَكانَ عَلَى بُعْدِ خَمْسِ خُطُواتٍ تَقْريبًا . وَكانَ أَكْبَرَ مَحارٍ شاهَدْتُهُ في حَياتي ؛ إذْ بَلَغَ طولُ ٱلواحِدَةِ ما يَزيدُ عَلى ٣٠ سَنْتيمِتْرًا ، وَكانَ ٱلمَحارُ سَميكًا جِدًّا وَمَكْسُوًّا بِالأَعْشابِ ٱلبَحْرِيَّةِ ٱلَّتي تُشْبِهُ شَعْرَ ٱلنِّساءِ . وَاخْتَرْتُ أَقْرَبَ مَحارَةٍ ، فَقَدْ بَدَتْ أَيْسَرَ مِنْ غَيْرِها في ٱلحُصولِ عَلَيْها ، وَبَدَأْتُ أَنْزِعُها بِسِكّيني . وَلٰكِنَّ صِغارَ ٱلسَّمَكِ ظَلَّ يَسْبَحُ حَوْلي بِكَثْرَةٍ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ نَزْعَها ، وَصَعِدْتُ إلى ٱلسَّطْحِ كَيْ أَتَنَفَّسَ .

غُصْتُ ثانِيَةً ، وَوَصَلْتُ إلى ٱلقاعِ ، وَلٰكِنْ عِنْدَما بَدَأْتُ أَنْزِعُ ٱلمَحارَةَ شاهَدْتُ ظِلًّا يُخَيِّمُ عَلَى ٱلمَكانِ . كانَ ٱلظِّلُّ لِسَمَكَةِ قِرْشٍ رَمادِيَّةٍ ، وَلٰكِنَّها كانَتْ مِنَ ٱلأَسْماكِ ٱلصَّديقَةِ ، وَما لَبِثَتْ أَنِ انْصَرَفَتْ . وَكانَ لا بُدَّ لي مِنَ ٱلصُّعودِ إلى ٱلسَّطْحِ لِلتَّنَفُّسِ مِنْ جَديدٍ .



غُصْتُ سِتَّ مَرَّاتٍ ، وَكُنْتُ في كُلِّ مَرَّةٍ أَعْمَلُ بِسُرْعَةٍ لِانْتِزاعِ ٱلْمَحارَةِ مِنَ ٱلصَّخْرَةِ ٱلَّتي ٱلْتَصَقَتْ بِها مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ انْتِزاعَها لَيْسَ سَهْلًا .

لَمْ يَكُنِ ٱلضَّوْءُ كافِيًا بَعْدَ ٱلظُّهْرِ ، وَكانَتِ ٱلدِّماءُ تَسيلُ مِنْ جُرْحٍ في يَدي ، وَعَيْنايَ تُؤْلِمانِني بِسَبَبِ مُلوحَةِ مِياهِ ٱلْبَحْرِ .

جَلَسْتُ في ٱلقارِبِ أُفَكِّرُ في ٱلسَّاعاتِ ٱلَّتي أَضَعْتُها دونَ فائِدَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ ٱلإِشْبيلِيَّ وَقِصَّةَ لُؤْلُؤَتِهِ ٱلكَبيرَةِ ٱلَّتي وَجَدَها (أَوْ قالَ إِنَّهُ وَجَدَها) في ٱلخَليجِ ٱلعَرَبِيِّ .

أَخَذْتُ نَفَسًا عَميقًا جِدًّا وَغُصْتُ مِنْ جَديدٍ .

بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مِنَ ٱلسِّكّينِ نَزَعْتُ ٱلْمَحارَةَ فَسَقَطَتْ عَلى جانِبِها ، وَلَفَفْتُ عَلَيْها ٱلحَبْلَ مَرَّتَيْنِ وَصَعِدْتُ إِلى ٱلقارِبِ ، وَجَذَبْتُها إِلَيْهِ . وَلٰكِنَّها كانَتْ مِنَ ٱلثِّقَلِ بِحَيْثُ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَرْفَعَها إِلى القارِبِ ، فَرَبَطْتُها في مُؤَخِّرَتِهِ وَغادَرْتُ ٱلكَهْفَ .

شاهَدْتُ سوتو لوزون واقِفًا بَيْنَ ٱلأَشْجارِ عَلى ٱلجانِبِ ٱلآخَرِ مِنَ ٱلبُحَيْرَةِ . لَقَدْ ظَلَّ واقِفًا هٰكَذا طَوالَ ٱليَوْمِ وَعَيْناهُ مُثَبَّتَتانِ عَلى ٱلكَهْفِ .

كانَ يُخاطِبُ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ قائِلًا : « أَنا لَمْ أُوافِقْ عَلى ذَهابِهِ إِلى ٱلكَهْفِ ، وَأَرْجو أَلَّا تَغْضَبَ مِنّي . »

أَمَّا أَنا فَقَدْ كُنْتُ عَلى يَقينٍ أَنَّهُ لَنْ يُحاوِلَ إِنْقاذي لَوْ أَشْرَفْتُ عَلى ٱلغَرَقِ . أَمَّا إِذا وَجَدْتُ لُؤْلُؤَةً فَسَيَقْتَسِمُ ثَمَنَها مَعي . وَلَنْ يَغْضَبَ مِنْهُ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِكْ مَعي في صَيْدِها .

عِنْدَما وَصَلْتُ إِلى ٱلشّاطِئِ ، اتَّجَهَ نَحْوي مُتَظاهِرًا بِعَدَمِ ٱلمُبالاةِ بِما أَكونُ قَدْ وَجَدْتُ ، كَيْ يُظْهِرَ لِشَيْطانِ ٱلبَحْرِ وَأَصْدِقائِهِ أَنْ لا عَلاقَةَ لَهُ بِما اصْطَدْتُ .

جَذَبْتُ ٱلمَحارَةَ حَتّى ٱلرِّمالِ .

أَبْدى دَهْشَتَهُ قائِلًا : « إِنَّها مَحارَةٌ كَبيرَةٌ . لَمْ أَرَ في حَياتي أَكْبَرَ مِنْ هٰذِهِ ٱلمَحارَةِ . إِنَّها جَدَّةُ كُلِّ ٱلمَحارِ ٱلَّذي يَعيشُ في ٱلبَحْرِ . »

قُلْتُ : « في ٱلكَهْفِ مَحارٌ كَثيرٌ أَكْبَرُ مِنْ هٰذِهِ ٱلمَحارَةِ . »

قالَ : « ما دامَ هُناكَ ٱلكَثيرُ فَلَنْ يَغْضَبَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ لِأَنَّكَ أَخَذْتَ مَحارَةً واحِدَةً مِنْها . »

قُلْتُ : « رُبَّما غَضِبَ بَعْضَ ٱلشَّيْءِ ، وَلٰكِنَّهُ عَلى كُلِّ حالٍ لَنْ يَغْضَبَ كَثيرًا . »

كانَ فَمُ ٱلمَحارَةِ مُغْلَقًا ، وَكانَ مِنَ ٱلصَّعْبِ أَنْ أُدْخِلَ سِكّيني بَيْنَ حافَتَيْهِ ، فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تَسْمَحُ لي بِسِكّينِكَ ؟ إِنَّ سِكّيني لَمْ يَعُدْ يَصْلُحُ بَعْدَ أَنْ تَثَلَّمَ عِنْدَ انْتِزاعِ ٱلمَحارَةِ مِنَ ٱلصَّخْرَةِ . »

وَضَعَ لُوزُون يَدَهُ عَلى ٱلسِّكِّينِ وَلٰكِنَّهُ أَعادَها قائِلًا : « مِنَ ٱلأَفْضَلِ أَنْ تَسْتَخْدِمَ سِكِّينَكَ . »

أَخيرًا فَتَحْتُ ٱلمَحارةَ ، ثُمَّ أَدْخَلْتُ فيها أُصْبُعي ، فَٱصْطَدَمَتْ بِلُؤْلُؤَةٍ أَخْرَجْتُها . كانَ قُطْرُها نِصْفَ سَنْتيمِترٍ تَقْرِيبًا ، ثُمَّ أَخْرَجْتُ لُؤْلُؤَةً ثانيةً بِنَفْسِ ٱلحَجْمِ ، ثُمَّ ثالِثةً .

أَقْبَلَ لُوزُون نَحْوي وَشَعَرْتُ بِأَنْفاسِهِ تَلْفَحُ رَقَبَتي .

دَفَعْتُ بِيَدي بِبُطْءٍ إِلى أَعْماقِ جِسْمِ ٱلمَحارةِ فَأَحْسَسْتُ بِجِسْمٍ صُلْبٍ . وَكانَ جِسْمًا كَبيرًا ، وَأَكْبَرَ مِنْ أَنْ يَكونَ لُؤْلُؤَةً . أَخْرَجْتُهُ وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ في ضَوْءِ ٱلشَّمْسِ ظانًّا أَنَّهُ حَجَرٌ تَسَلَّلَ إِلى داخِلِ ٱلمَحارةِ .

كانَ مُسْتَديرًا وَفي لَوْنِ ٱلدُّخانِ ، وَمَلأَ كَفَّ يَدي . وَعِنْدَ ما تَخَلَّلَهُ ضَوْءُ ٱلشَّمْسِ أَضْفَى عَلَيْهِ لَوْنًا فِضِّيًّا . إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَجَرًا إِذًا . إِنَّهُ لُؤْلُؤَةُ ٱلسَّماءِ ٱلعَظيمةُ .

قالَ لُوزُون بِصَوْتٍ خافِتٍ : « يا إِلٰهي ! يا إِلٰهي ! »

مَزَّقْتُ قِطْعَةً مِنْ قَميصي ، وَوَضَعْتُ فيها ٱللُّؤْلُؤَةَ ، وَمَدَدْتُ يَدي بِها إِلَيْهِ قائِلًا : « نِصْفُها لَكَ . فَتَراجَعَ إِلى ٱلوَراءِ خائِفًا ، فَسَأَلْتُهُ : « هَلْ تُريدُني أَنْ أَحْتَفِظَ بِها حَتّى نَعودَ إِلى لاباز ؟ »

أَجابَني : « نَعَمْ ، مِنَ ٱلأَفْضَلِ لَكَ أَنْ تُبْقِيَها مَعَكَ . »

سَأَلْتُهُ : « مَتى نَعودُ ؟ »

قالَ : « فَوْرًا ! إِنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ غائِبٌ ، وَلٰكِنَّهُ سَيَعودُ ، وَسَيُخْبِرُهُ أَصْدِقاؤُهُ عَنِ ٱللُّؤْلُؤَةِ . »

الفَصْلُ السّابِعُ

شَيْطانُ البَحْرِ يَتْبَعُني

لَمْ نَنْتَظِرْ حَتَّى نَأْكُلَ ، بَلْ أَنْزَلْتُ القارِبَ إلى الماءِ ، وَذَهَبَ لُوزُون إلى كُوخِهِ وَأَحْضَرَ قليلًا مِنَ الكَعْكِ .

عِنْدَ مُرورِنا أَمامَ الكَهْفِ لَمَسَ قُبَّعَتَهُ وَتَمْتَمَ بِبَعْضِ الكَلِماتِ الخافِتَةِ .

كانَ القَمَرُ ساطِعًا ، وَعِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ كُنَّا عَلى مَقْرُبَةٍ مِنْ خَليجِ بشِلِنْك ، وَاسْتَطَعْنا أَنْ نَرى أَضْواءَ مَدينةِ لاباز عَلى بُعْدٍ . وَفَجْأَةً نَظَرَ لُوزُون خَلْفَهُ ، وَكانَ قَدْ كَرَّرَ ذٰلِكَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ مُنْذُ أَنْ غادَرْنا البُحَيْرَةَ . وَرَفَعَ ذِراعَهُ وَأَشارَ ، ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ هادِئٍ : « شَيْطانُ البَحْرِ ! »

رَأَيْتُ خَلْفَنا عَلى مَسافَةٍ طَويلةٍ ما كانَ يَعْنيهِ – رَأَيْتُ شَيْئًا ضَخْمًا يَتَحَرَّكُ في الماءِ .

قُلْتُ : « إِنَّها سَمَكَةٌ ، وَلٰكِنَّها لَيْسَتْ شَيْطانَ البَحْرِ . لَقَدْ رَأَيْتُها مِنْ قَبْلُ .. رَأَيْتُها الأُسْبوعَ الماضي . »

قالَ : « إِنَّهُ شَيْطانُ البَحْرِ ! » وَأَدارَ القارِبَ نَحْوَ الشّاطِئِ قائِلًا : « سَنَذْهَبُ إلى بِشِلِنْك . »

قُلْتُ : « وَلٰكِنَّ لاباز لَيْسَتْ بَعيدةً . »

أجابَ : « إِنَّها بَعيدةٌ جِدًّا وَلَنْ نَصِلَها أَبدًا . »

عَمِلَ بِكُلِّ قُوَّتِهِ ، وَبَدا القارِبُ وَكَأَنَّهُ يَقْفِزُ فَوْقَ الماءِ . لَقَدِ اعْتَقَدَ أَنَّ شَيْطانَ البَحْرِ يَتْبَعُنا حَتَّى يَسْتَرِدَّ اللُّؤْلُؤَةَ الَّتي سَرَقْتُها . وَجَذَّفْتُ بِكُلِّ قُوَّتي ، وَفَكَّرْتُ في اللُّؤْلُؤَةِ الكَبيرةِ الَّتي كُنْتُ أَحْتَفِظُ بِها في قَميصي . وَفَكَّرْتُ في الإشبيلِيِّ وَمَدى دَهْشَتِهِ عِنْدَما يَراها . وَتَساءَلْتُ : « ماذا سَيَقولُ أَبي وَكُلُّ أَهْلِ المَدينةِ ؟ »

وَبَيْنَما نَحْنُ نَعْبُرُ مَدْخَلَ خليجِ بِشِلِنْك سَأَلَني : « هَلْ تَرى شَيْطانَ البَحْرِ ؟ »

أَجَبْتُ : « كَلَّا ! لا أَراهُ . »

فَجْأَةً دَوَّى صَوْتٌ مُرْعِبٌ ، وَكَأَنَّما انْطَبَقَتْ عَلَيْنا السَّماءُ ، وَارْتَفَعَ القارِبُ ، ثُمَّ انْقَلَبَ رَأْسًا عَلى عَقِبٍ ، وَقَذَفَ بي في الماءِ . وَارْتَفَعَتِ الأَمْواجُ الهائِلَةُ تَتَلاطَمُ فَوْقَ رَأْسَيْنا .

لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ لُوزُون ، وَلٰكِنِّي سَمِعْتُ صُراخَهُ . وَكانَ كُلُّ تَفْكيري مُنْحَصِرًا في اللُّؤْلُؤَةِ ، فَوَضَعْتُ يَدي في قَميصي وَوَجَدْتُها .

سَبَحْتُ إلى الشّاطِئِ ، وَكانَ لُوزُون قَدْ سَبَقَني إِلَيْهِ . وَوَقَفْتُ عَلى الشّاطِئِ وَأَخْرَجْتُ لَهُ اللُّؤْلُؤَةَ حَتَّى يُدْرِكَ أَنَّها في أَمانٍ .

قالَ : « ارْمِها في البَحْرِ . إِنَّ شَيْطانَ البَحْرِ يَنْتَظِرُها وَلَنْ يَهْدَأَ حَتَّى يَسْتَرِدَّها . »



كانَ ٱلخَليجُ هادِئًا ، وَلَمْ أَرَ شَيْئًا سِوَى ٱلقارِبِ ٱلمُحَطَّمِ . وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَثَرٌ لِشَيْطانِ ٱلبَحْرِ .

قُلْتُ : « إِنَّ ٱللُّؤْلُؤَةَ مَعَنا ، وَما زِلْنا أَحْياءً . إِذا سِرْنا بِسُرْعَةٍ وَصَلْنا إِلى لاباز قُبَيْلَ طُلوعِ ٱلنَّهارِ . »

قالَ : « لَنْ أَذْهَبَ إِلى هُناكَ بِٱللُّؤْلُؤَةِ ، وَسَأَبْقَى هُنا حَتَّى ٱلصَّباحِ لِأَسْتَعيدَ ٱلقارِبَ . إِنَّ ٱللُّؤْلُؤَةَ تَخُصُّكَ أَنْتَ ، فَأَنا لَمْ أَجِدْها وَلا عَلاقَةَ لي بِها . » وَٱبْتَعَدَ عَنّي كَما لَوْ كُنْتُ أَحْمِلُ في يَدي شَرًّا مُسْتَطيرًا .

قُلْتُ لَهُ : « إِنَّها تُساوي أَموالًا طائِلَةً وَسَتُغَيِّرُ رَأْيَكَ . »

قال : « أَبَدًا ! لَنْ أُغَيِّرَ رَأْيي أَبَدًا ! »

قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ تَرَكْتُ ثَلاثَ لآلِئَ هُناكَ . »

قالَ : « سَأُلْقي بِها إِلى ٱلبَحْرِ . »

قُلْتُ : « افْعَلْ ما شِئْتَ . »

قالَ : « عَلَيْكَ أَنْ تَقْذِفَ بِٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلكَبيرَةِ في ٱلبَحْرِ أَيْضًا ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَسَوْفَ يَسْتَرِدُّها شَيْطانُ ٱلبَحْرِ يَوْمًا ، وَسَوْفَ يَأْخُذُ حَياتَكَ مَعَها . »

تَبادَلْنا ٱلتَّحِيَّةَ ، وَسِرْتُ بِحِذاءِ ٱلشّاطِئِ في ٱتِّجاهِ مَدينَةِ لاباز ، وَكانَتْ عَلى بُعْدِ سِتَّةَ عَشَرَ كيلو مِتْرًا تَقْريبًا وَبَلَغْتُها قَبْلَ طُلوعِ ٱلنَّهارِ .

الفَصْلُ ٱلثّامِنُ

اثْنانِ وَسِتّونَ قيراطًا

وَصَلْتُ لاباز قَبْلَ طُلوعِ ٱلنَّهارِ ، وَذَهَبْتُ إلى مَكْتَبِ سالازار وَوَلَدِهِ ، فَدَخَلْتُهُ وَأَخْرَجْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ مِنْ قِطْعَةِ ٱلقُماشِ ٱلَّتي قَطَعْتُها مِنْ قَميصي ، وَوَزَنْتُها وَكانَتْ تَزِنُ اثْنَيْنِ وَسِتّينَ قيراطًا .

أَعَدْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ إلى مَكانِها في قَميصي . وَكانَتِ ٱلشَّمْسُ قَدْ أَشْرَقَتْ ، وَخَرَجَ ٱلنّاسُ إلى ٱلشَّوارِعِ . وَشَرَعْتُ كَعادَتي أُحَيّي مَنْ يُقابِلُني ، وَتَوَقَّفْتُ بِٱلقُرْبِ مِنْ مَكْتَبِ ٱلبَريدِ لِأَتَحَدَّثَ إلى سَيِّدَةٍ تَبيعُ مَشْروباتٍ ساخِنَةً .

وَصَلْتُ مَنْزِلَنا في ٱلمَيْدانِ ، وَلِلْمَنْزِلِ بَوّابَةٌ حَديدِيَّةٌ تُغْلَقُ في ٱللَّيْلِ . وَلَمّا قَرَعْتُ جَرَسَ ٱلبابِ فَتَحَهُ ٱلخادِمُ ٱلهِنْدِيُّ ، فَأَلْقَيْتُ عَلَيْهِ تَحِيَّةَ ٱلصَّباحِ وَتَوَجَّهْتُ إلى ٱلمَطْبَخِ ، وَتَناوَلْتُ وَجْبَةَ إفْطارٍ كَبيرَةً كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ ، وَكَأَنَّني لا أَمْلِكُ أَجْمَلَ لُؤْلُؤَةٍ وُجِدَتْ في بَحْرِ ڤيرْميليون .

ذَهَبْتُ إلى غُرْفَتي وَرَقَدْتُ في فِراشي ، ثُمَّ نَهَضْتُ وَوَضَعْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ في مَكانٍ أَمينٍ تَحْتَ رَأْسي مُباشَرَةً ، وَعُدْتُ إلى فِراشي وَتَهَيَّأْتُ لِلنَّوْمِ . حاوَلْتُ أَنْ أُبْعِدَ عَنْ ذِهْني ٱللُّؤْلُؤَةَ وَما سَيَقولُهُ أَبي وَكَذٰلِكَ ٱلإشْبيلِيُّ . ثُمَّ تَذَكَّرْتُ أَنَّني لَمْ أُغْلِقْ بابَ مَكْتَبِنا ، فَنَهَضْتُ وَوَضَعْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ في قَميصي ، وانْطَلَقْتُ إلى مَكْتَبِنا .

عِنْدَما مَرَرْتُ بِبائِعَةِ ٱلمَشْروباتِ ٱلسّاخِنَةِ نادَتْني ، وَكانَتْ تَبيعُنا أَحْيانًا بَعْضَ حَبّاتِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلصَّغيرَةِ . وَكانَتْ تَدُسُّ أَنْفَها في كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَوَدُّ أَنْ تَعْرِفَ كُلَّ ما يَجْرى في لاباز .

قالَتْ : « إنَّكَ تَروحُ وَتَجيءُ كَثيرًا هٰذا ٱلصَّباحَ . »

قُلْتُ : « نَعَمْ ، إنَّهُ صَباحٌ جَميلٌ يُشَجِّعُ عَلى ٱلسَّيْرِ . »

قالَتْ : « اقْتَرِبْ . هَلْ تَعْرِفُ كانْتو ٱلصَّيّادَ ٱلَّذي يُقيمُ في بِشِلِنْك ؟ »

أَجَبْتُها : « نَعَمْ ، أَعْرِفُهُ . »

قالَتْ : « لَقَدْ مَرَّ مِنْ هُنا حالًا وَأَخْبَرَني بِٱلعُثورِ عَلى لُؤْلُؤَةٍ كَبيرَةٍ . هَلْ سَمِعْتَ بِذٰلِكَ ؟ »

أَجَبْتُ : « إنَّ ٱلحَديثَ عَنِ ٱلعُثورِ عَلى لُؤْلُؤَةٍ كَبيرَةٍ نَسْمَعُهُ كُلَّ أُسْبوعٍ ، ثُمَّ يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ ٱلقِصَّةَ وَهْمِيَّةٌ . »

كُنْتُ حَريصًا أَلّا تَعْلَمَ هِيَ أَوْ سِواها بِخَبَرِ ٱللُّؤْلُؤَةِ حَتّى يَعودَ والِدي ، فَهُوَ ٱلَّذي يُقَرِّرُ كَيْفَ وَمَتى يُذاعُ ٱلخَبَرُ في ٱلمَدينَةِ . وَلَيْسَ مِنْ حَقّي كَابْنِهِ أَنْ أَسْلُبَهُ هٰذا ٱلشَّرَفَ ؛ لِذا حَيَّيْتُها وانْصَرَفْتُ .

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى آخِرِ ٱلشّارِعِ ، شاهَدْتُ حَشْدًا مِنَ ٱلنّاسِ يَتَجَمَّعُ أَمامَ « مَكْتَبِ سالازار وَوَلَدِهِ » فَقَرَّرْتُ ٱلعَوْدَةَ إلى ٱلمَنْزِلِ ، وَلٰكِنّي سَمِعْتُ أَحَدَهُمْ يُنادي : « رامون ! » الْتَفَتَ ٱلجَميعُ نَحْوي ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّني لَو

اتَّجَهْتُ إلى مَنْزِلي لَتَبِعوني ، وَلَمْ أَرَ بُدًّا مِنَ ٱلذَّهابِ إِلَيْهِمْ .

صاحَ ٱلبَعْضُ : « ٱللُّؤْلُؤَةَ ! ٱللُّؤْلُؤَةَ ! »

وَصَرَخَ ٱلآخرونَ : « أَرِها لَنا ! أَرِنا إِيَّاها ! »

تَظاهَرْتُ بِٱلدَّهْشَةِ ، وَسَأَلْتُ : « أَيَّةُ لُؤْلُؤَةٍ ؟ » وَدَخَلْتُ ٱلمَكْتَبَ وأَغْلَقْتُ ٱلبابَ ، ثُمَّ وَضَعْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ في ٱلخِزانَةِ وَجَلَسْتُ إلى ٱلمَكْتَبِ .

أَطَلَّ صَبِيٌّ مِنَ ٱلنَّافِذَةِ ٱلصَّغيرةِ ٱلمَوْجودةِ بِٱلحائِطِ ، وَكانَ يَعْتَلي ظَهْرَ أَحَدِ ٱلرِّجالِ ، وَبَدَأَ يُخْبِرُ ٱلحَشْدَ بِما يُشاهِدُهُ ، وَعِنْدَما فَتَحْتُ ٱلسِّجِلَّ قالَ : « لَقَدْ فَتَحَ سِجِلًّا . »



تَزايَدَ ٱلحَشْدُ حَتَّى ٱمْتَلأَ ٱلشَّارِعُ تَمامًا عِنْدَ مُنْتَصَفِ ٱلنَّهارِ ، وَتَعِبَ صَبِيُّ ٱلنَّافِذةِ وَٱنصَرَفَ . وَلٰكِنِّي جَلَسْتُ إلى مَكْتَبي وَأَخَذْتُ أَكْتُبُ . كُنْتُ أَكْتُبُ أَيَّ شَيْءٍ يَخْطُرُ بِبالي ، وَأُفكِّرُ في ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلعَظيمةِ .

قُلْتُ أُحَدِّثُ نَفْسي : « آمُلُ أَنْ تَصِلَ سُفُنُنا قَبْلَ أَنْ أُضْطَرَّ إلى مُغادَرةِ ٱلمَكْتَبِ وَمُواجَهةِ ٱلحَشْدِ مَرَّةً ثانيةً . »

وَصَلَتِ ٱلسُّفُنُ في تَمامِ ٱلسَّاعةِ ٱلثَّانيةِ ، وَتَعَجَّبَ أَبي لِتَجَمْهُرِ ٱلنَّاسِ أَمامَ مَكْتَبِنا ، لِذا كانَ أَوَّلَ مَنْ هَبَطَ مِنَ ٱلسَّفينةِ ، وَجاءَ راكِضًا إلى ٱلشَّاطِئِ . وَعِنْدَما فَتَحْتُ ٱلبابَ دَخَلَ مُسْرِعًا وَسَأَلَني : « ماذا حَدَثَ ؟ »

عادَ ٱلصَّبِيُّ يُطِلُّ مِنَ ٱلنَّافِذةِ ، وَلٰكِنِّي فَتَحْتُ ٱلخِزانةَ وَأَخْرَجْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ وَناوَلْتُها لِأَبي قائِلًا : « هٰذِهِ ! لَقَدْ وَجَدْتُها . »

أَخَذَها أَبي وَقَلَّبَها في يَدِهِ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا وَكَأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْ ما رَأى .

قالَ بَعْدَ قَليلٍ : « هٰذِهِ لَيْسَتْ لُؤْلُؤَةً . »

قُلْتُ : « بَلْ هِيَ لُؤْلُؤَةٌ . »

قالَ : « كَلَّا ! لا يوجَدُ في كُلِّ بِحارِ العالَمِ لُؤْلُؤَةٌ بِهٰذا ٱلحَجْمِ . » ثُمَّ نَظَرَ إلى ٱللُّؤْلُؤَةِ قائِلًا : « لَقَدْ صَنَعْتَها بِيَدِكَ . لَقَدْ لَصَقْتَ عِدَّةَ لَآلِئَ مَعًا وَشَكَّلْتَها عَلى هَيْئَةِ كُرةٍ . »

قُلْتُ : « كَلَّا ! إِنَّها لُؤْلُؤَةٌ . لُؤْلُؤَةٌ حَقيقيَّةٌ وَجَدْتُها . »

صاحَ صَبيُّ ٱلنّافِذةِ إلى ٱلجَمْهورِ قائِلًا : « إنَّها لُؤْلُؤةٌ كَبيرةٌ عَظيمةٌ ! أَكْبَرُ لُؤْلؤةٍ في ٱلعالَمِ ! » صاحَ ٱلنّاسُ في ٱلشّارِعِ .

حَمَلَ أبي ٱللُّؤْلُؤةَ في ٱلضَّوْءِ ، وَقَلَّبَها بِبُطْءٍ بَيْنَ أصابِعِهِ ، ثُمَّ فَتَحَ ٱلبابَ وَرَفَعَها إلى أَعْلى حَتّى يُشاهِدَها ٱلجَميعُ .

سادَ ٱلسُّكونُ ، وَلَمْ أَسْمَعْ سِوى صَوْتِ ٱلأَمْواجِ ٱلمُتَكَسِّرةِ عَلى ٱلشّاطِئِ ، عِنْدَئِذٍ أَغْلَقَ أبي ٱلبابَ وَنَظَرَ إلَيَّ قائِلًا : « يا إلَهي ! »

قالَها ثَلاثَ مَرّاتٍ ، ثُمَّ جَلَسَ وَثَبَّتَ عَيْنَيْهِ عَلى ٱللُّؤْلُؤةِ ٱلسَّوْداءِ ٱلعَظيمةِ ٱلَّتي مَلَأَتْ يَدَهُ .

الفَصْلُ ٱلتّاسِعُ

الشّائِبَةُ

الشّائِبَةُ هِيَ ما يُفْسِدُ ٱلشَّيْءَ ، لِأَنَّها تَنْتَقِصُ مِنْ كَمالِهِ . وَشائِبَةُ ٱللُّؤْلُؤةِ عَلامَةٌ أَوْ بُقْعةٌ تُفْسِدُها ، وَتُقَلِّلُ مِنْ جَمالِها .

عِنْدَما عُدْتُ مَعَ أَبي إلى مَنْزِلِنا في ذٰلِكَ ٱلمَساءِ تَبِعَنا حَشْدٌ كَبيرٌ مِنَ ٱلنّاسِ . وَكانَ خَبَرُ عُثورِ رامون بْن سالازار عَلى لُؤْلُؤةٍ عَظيمةٍ قَدْ ذاعَ في ٱلمَدينةِ وَفي ٱلرِّيفِ ، وَجاءَ ٱلمُزارِعونَ مِنْ فَوْقِ ٱلتِّلالِ ، وَكَذٰلِكَ ٱلصَّيّادونَ وَٱلغَوّاصونَ ، وَٱلتُّجّارُ مِنْ مَحَلّاتِهِمْ وَٱلنِّساءُ وَٱلأَطْفالُ . جاءوا مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَتَبِعونا مَعَ ٱلحَشْدِ . جاءَ ٱلجَميعُ ما عَدا ٱلإشْبيليَّ . نَعَمْ ، ما عَدا ٱلإشْبيليَّ ! كانَ ٱلكُلُّ يُغَنّي وَيَهْتِفُ لِلُّؤْلُؤةِ ٱلعَظيمةِ . إنَّ مَدينةَ لاباز تَعيشُ عَلى صَيْدِ ٱللُّؤْلُؤِ وَبَيْعِهِ ، لِذا يَهْتَمُّ كُلُّ مَنْ يَسْكُنُ فيها وَفي ريفِها بِكُلِّ ما يَجيءُ مِنَ ٱلبَحْرِ .

تَبِعَنا ٱلحَشْدُ حَتّى بَوّابةِ ٱلمَنْزِلِ ، وَظَلَّ ٱلنّاسُ واقِفينَ في ٱلخارِجِ بَعْدَ أَنْ أَغْلَقْنا ٱلأَبْوابَ ، وَأَخَذَ عَدَدُهُمْ يَتَزايَدُ .

كانَ أَبي يُزيلُ ٱلشَّوائِبَ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ داخِلَ حُجْرةٍ صَغيرةٍ في بَيْتِنا . فَأَخَذَ ٱللُّؤْلُؤةَ ٱلعَظيمةَ وَدَخَلَ هٰذِهِ ٱلحُجْرةَ ، وَأَغْلَقَ بابَها حَتّى لا يَرى ٱلخَدَمُ ماذا يَفْعَلُ .

قامَ بِوَزْنِها في أَوَّلِ الأَمْرِ قائِلًا : « نَعَمْ إِنَّها تَزِنُ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ قِيراطًا ، وَهِيَ مُسْتَديرَةٌ تَمامًا وَلٰكِنْ بِها شائِبَةٌ . »

وَضَعَها أَمامَ الضَّوْءِ قائِلًا : « أُنْظُرْ . سَوْفَ تَرى شائِبَةً صَغيرَةً جِدًّا . أَعْتَقِدُ أَنَّها بِالْقِشْرَةِ الخارِجِيَّةِ أَوْ تَحْتَها ، فَأَنا لَسْتُ مُتَأَكِّدًا . »

كُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ هٰذِهِ الشّائِبَةَ ، وَلٰكِنِّي لَمْ أُعِرْها أَيَّ اهْتِمامٍ لِصِغَرِها . قُلْتُ لَهُ : « أَخْشى عِنْدَ إِزالَتِكَ شائِبَةَ اللُّؤْلُؤَةِ أَنْ تَجِدَها غائِرَةً جِدًّا . »

قالَ : « إِذا كانَتِ الشّائِبَةُ غائِرَةً ، فَاللُّؤْلُؤَةُ لَيْسَتْ عَظيمَةً . ماذا تُفَضِّلُ : أَنْ تَمْتَلِكَ أَعْظَمَ لُؤْلُؤَةٍ ، أَمْ مُجَرَّدَ لُؤْلُؤَةٍ جَيِّدَةٍ ؟ »

قُلْتُ : « أُريدُ أَعْظَمَ لُؤْلُؤَةٍ – لُؤْلُؤَةَ السَّماءِ . »

لٰكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَرْغَبُ أَنْ يُزيلَ أَبي شائِبَةَ اللُّؤْلُؤَةِ ، فَكَمْ شاهَدْتُ لُؤْلُؤًا جَميلًا يَتَحَطَّمُ في هٰذِهِ العَمَلِيَّةِ . لِذٰلِكَ قُلْتُ : « لَوْ كانَتِ الشّائِبَةُ عَميقَةً فَلَنْ نَسْتَفيدَ شَيْئًا ، أَمّا إِذا كانَتِ الشّائِبَةُ صَغيرَةً ، فَرُبَّما لا يُلاحِظُها المُشْتَري . »

قالَ أَبي : « كَلّا ، إِنَّ المُشْتَرِيَ يَرى الشّائِبَةَ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ . حَتّى إِذا كانَتِ اللُّؤْلُؤَةُ تَزِنُ سِتِّينَ قِيراطًا وَمُسْتَديرَةً وَرائِعَةَ اللَّوْنِ ، سَوْفَ يُغْفِلُ كُلَّ هٰذا وَيَتَحَدَّثُ فَقَطْ عَنْ عَيْبِها . أَحْضِرْ مِصْباحًا آخَرَ وَقَرِّبْ هٰذا ، ثُمَّ ادْعُ اللهَ أَنْ يُرْشِدَ يَدي وَهِيَ مُمْسِكَةٌ بِالسِّكِّينِ . »

قَرَّبْتُ المِصْباحَ وَأَحْضَرْتُ مِصْباحًا آخَرَ ، وَكانَ قَلْبي يَخْفُقُ بِشِدَّةٍ ،

وَأَصْواتُ الغِناءِ تَأْتينا مِنَ النّافِذَةِ ، فَقُلْتُ في نَفْسي : « بَعْدَ قَليلٍ لَنْ يَكونَ هُناكَ ما نُغَنّي لَهُ . »

بَدَأْتُ أُصَلّي وَلٰكِنَّ الكَلِماتِ احْتَبَسَتْ في حَلْقي ، وَكُنْتُ طَوالَ الوَقْتِ أَسْمَعُ صَوْتَ لُوزُون : « سَوْفَ يَسْتَعيدُها شَيْطانُ البَحْرِ يَوْمًا ما . سَوْفَ يَأْخُذُها شَيْطانُ البَحْرِ . » وَفَكَّرْتُ : « هَلْ سَتَتَحَقَّقُ هٰذِهِ الكَلِماتُ ؟ هَلْ سَيُحَطِّمُ أَبي اللُّؤْلُؤَةَ بِسِكِّينِهِ ؟ »

أَمْسَكَ أَبي سِكِّينًا صَغيرًا بِيَدٍ ، وَأَمْسَكَ اللُّؤْلُؤَةَ بِيَدِهِ الأُخْرى ، ثُمَّ وَضَعَ حافَةَ السِّكِّينِ عَلى اللُّؤْلُؤَةِ ، وَسَمِعْتُ صَوْتًا خافِتًا بَيْنَما كانَ السِّكِّينُ يَقْطَعُ القِشْرَةَ الخارِجِيَّةَ ، ثُمَّ انْفَصَلَتِ القِشْرَةُ . وَكانَتْ أَرَقَّ مِنْ أَرَقِّ وَرَقَةٍ ثُمَّ زادَ طولُها ، وَأَخيرًا سَقَطَتْ عَلى المِنْضَدَةِ .

ارْتَفَعَتْ أَصْواتُ الغِناءِ في الخارِجِ ، أَمّا داخِلَ الغُرْفَةِ فَلَمْ يَكُنْ سِوى صَوْتِ أَبي وَهُوَ يَلْتَقِطُ أَنْفاسَهُ مِنْ جَديدٍ .

وَضَعَ سِكِّينَهُ وَحَمَلَ اللُّؤْلُؤَةَ وَنَظَرَ إِلَيْها طَويلًا عَلى ضَوْءِ المِصْباحِ ، وَكُنْتُ أُراقِبُ مَلامِحَ وَجْهِهِ الَّتي لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْها أَيُّ تَغْييرٍ .

أَخيرًا قُلْتُ : « حَسَنًا ؟ ماذا تَرى ؟ »

لَمْ يُجِبْني ، وَلٰكِنَّهُ هَزَّ رَأْسَهُ ، وَالْتَقَطَ السِّكِّينَ مِنْ جَديدٍ ، وَتَطَلَّعْتُ أَنا إِلى السَّماءِ في الخارِجِ وَبَدَأْتُ أُصَلّي .

قالَ : « راقِبْني وَأنا أَعْمَلُ ؛ رُبَّما اضْطُرِرْتَ أَنْ تَفْعَلَ هٰذا بِنَفْسِكَ يَوْمًا ما . »

عُدْتُ إلى ٱلمِنْضَدةِ وَأنا لا أزالُ أُصَلّي مِنْ أَجْلِ بَقاءِ ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلسَّوْداءِ ٱلعَظيمةِ ، وَدارَ ٱلسِّكّينُ دَوْرَتَهُ وَشاهَدْتُ عَلى ضَوْءِ ٱلمِصْباحِ ٱلقِشْرَةَ ٱلرَّقيقةَ مُلْقاةً عَلى ٱلمِنْضَدةِ .

وَضَعَ أَبي ٱللُّؤْلُؤَةَ أَمامَ ٱلضَّوْءِ وأَخذَ يُقَلِّبُها عَلى كُلِّ جانِبٍ ، ثُمَّ رَفَعَها عاليًا فَوْقَ رَأْسِهِ كَما لَوْ كانَ يُريدُ أَنْ يُريَها لِلعالَمِ أَجْمَعَ .

أَعْطانيها أَبي قائِلًا : « لَقَدْ زالَتِ ٱلشّائِبَةُ ، وَفي يَدِكَ ٱلآنَ أَعْظَمُ وَأَجْمَلُ لُؤْلُؤةٍ في ٱلعالَمِ . إنَّها لُؤْلُؤَةُ ٱلسَّماءِ ! »

الفَصْلُ ٱلعاشِرُ

هَدِيَّةٌ إلى مُتْحَفِ ٱلمَدينةِ

كانَ في لاباز أَرْبَعةٌ مِنْ كِبارِ تُجّارِ ٱللُّؤْلُؤِ ، بِٱلإضافةِ إلى كَثيرينَ مِنْ صِغارِ ٱلتُّجّارِ ٱلَّذينَ لا يَبيعونَ إلّا ٱلقَليلَ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلصَّغيرِ .

بَعْدَ أَنْ أَزالَ أَبي شائِبَةَ ٱللُّؤْلُؤَةِ بِأُسْبوعٍ تَقْريبًا جاءَ ٱلتُّجّارُ ٱلأَرْبَعةُ إلى بَيْتِنا .

في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ فَكَّرَ أَبي أَنْ يَأْخُذَ ٱللُّؤْلُؤَةَ إلى مَدينةِ مِكْسيكو سيتي ، وَلٰكِنَّهُ عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ لِصُعوبةِ ٱلتَّعامُلِ مَعَ ٱلنّاسِ هُناكَ .

لَمْ يَكُنْ في مَدينةِ لاباز تاجِرٌ واحِدٌ ، أَوْ حَتّى ٱثْنانِ أَوْ ثَلاثةٌ يَسْتَطيعونَ دَفْعَ ٱلمَبْلَغِ ٱلَّذي نَطْلُبُهُ ثَمَنًا لِلُّؤْلُؤةِ . وَلٰكِنْ كانَ في مَقْدورِ ٱلتُّجّارِ ٱلأَرْبَعةِ فَقَطْ أَنْ يَدْفَعوا مَعًا ثَمَنَ ٱللُّؤْلُؤةِ .

جاءَ ٱلتُّجّارُ ٱلأَرْبَعةُ في وَقْتٍ مُبَكِّرٍ بَعْدَ ٱلظَّهيرةِ وَقَدِ ارْتَدَوْا أَفْخَمَ مَلابِسِهِمْ ، وَحَملوا مَعَهُمْ أَدَواتِهِمْ لِوَزْنِ ٱللُّؤْلُؤَةِ وَقياسِها ، وكانَتْ نُقودُهُمْ مَوْضوعةً في حَقيبةٍ . وَتَبِعَهُمْ حَشْدٌ مِنَ ٱلنّاسِ وَوَقَفوا خارِجَ ٱلبَوّابةِ .

عادَتْ والِدَتي وَشَقيقَتي مِنْ مَدينةِ لوريتو بَعْدَ أَنْ سَمِعَتا بِخَبَرِ ٱللُّؤْلُؤةِ ؛ لِذا كانَتْ حُجْرةُ ٱلاسْتِقْبالِ مَليئةً بِٱلأَزْهارِ ، وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ نَظيفًا وَبَرّاقًا .

وَضَعَ ٱلرِّجالُ حَقيبةَ ٱلنُّقودِ عَلى ٱلمِنْضَدةِ وَجَلَسوا دونَ أَنْ يَنْطِقوا

بِكَلِمةٍ . اِلْتَفتَ أَبي إِلى حَقيبةِ ٱلنُّقودِ وَقالَ : « إِنَّها حَقيبةٌ صَغيرةٌ ، وَأَشُكُّ أَنَّها تَسَعُ مالًا يَكْفي لِشِراءِ لُؤْلُؤةِ ٱلسَّماءِ . »

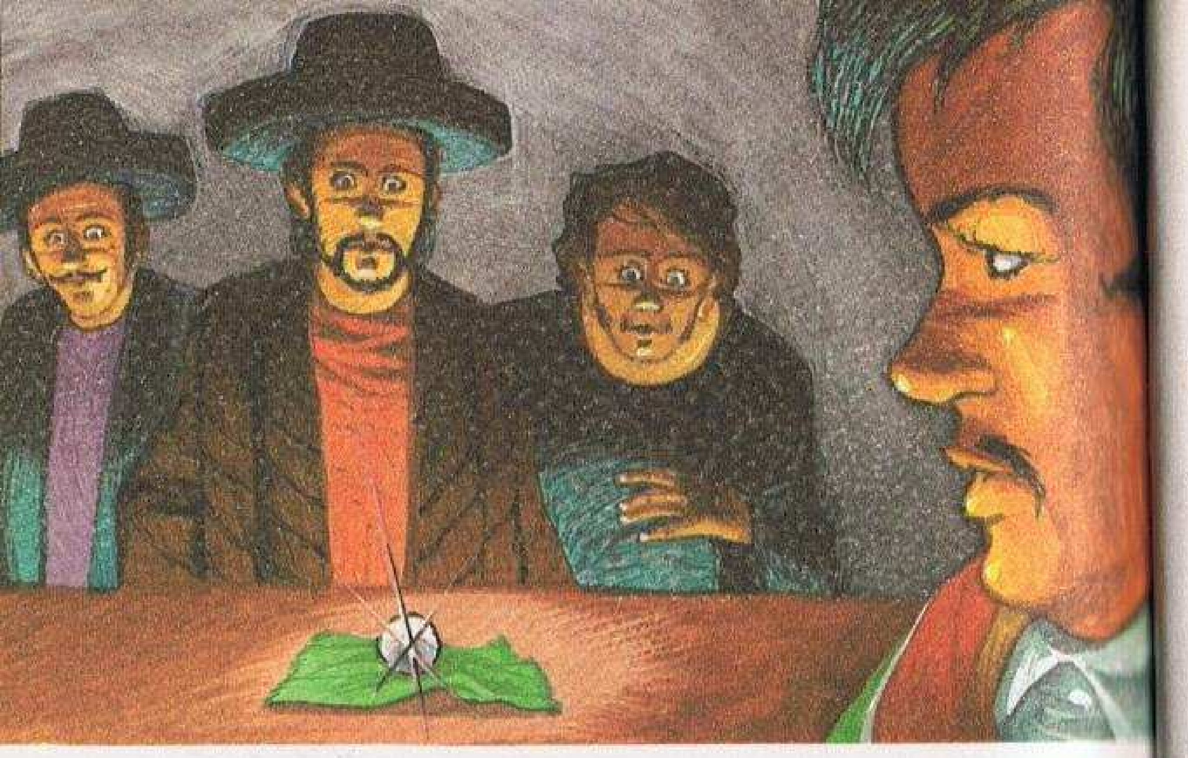
قالَ أَرْتُورو مارْتِن ، وَهُوَ رَجُلٌ ضَخْمٌ ذو يَدَيْنِ صَغيرَتَيْنِ بَيْضاوَيْنِ : « لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ ٱللُّؤْلُؤةَ في حَجْمِ ٱلبُرْتُقالةِ ، وَلَوْ كانَ هٰذا صَحيحًا لَكانَ ما مَعَنا مِنْ مالٍ يَزيدُ عَنْ ثَمَنِها . إِنَّ ٱللُّؤْلُؤَ ٱلكَبيرَ لا يُساوي مَبالِغَ كَبيرةً . »

أَضافَ زَميلُهُ مِيغيل بالُومارِيس ، وَهُوَ رَجُلٌ بَدينٌ أَصْلَعُ : « إِنَّ ٱللُّؤْلُؤَ ٱلكَبيرَ لا يَعيشُ طَويلًا ، وَهُوَ غالِبًا ما يَموتُ وَيَفْقِدُ بَريقَهُ قَبْلَ أَنْ يَمُرَّ عامٌ واحِدٌ . »

أَجابَ أَبي : « هٰذا حالُ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلصَّغيرِ ، مِثْلُ تِلْكَ ٱللُّؤْلُؤةِ ٱلَّتي بِعْتَها لَنا ٱلشَّهْرَ ٱلماضي . وَقَبْلَ أَنْ أُرِيَكُمْ لُؤْلُؤةَ ٱلسَّماءِ سَأَذْكُرُ لَكُمْ ثَمَنَها . إِنَّهُ عِشْرونَ أَلْفَ بيزو . لا أَقَلَّ وَلا أَكْثَرَ . »

تَبادَلَ ٱلرِّجالُ ٱلأَرْبَعةُ ٱلنَّظَراتِ وَكَأَنَّهُمْ كانوا مُتَّفِقينَ عَلى ٱلثَّمَنِ ٱلَّذي سَيَدْفَعونَهُ .

خَرَجَ أَبي مِنَ ٱلحُجْرةِ وَعادَ وَمَعَهُ ٱللُّؤْلُؤةُ مَلْفوفةً في قُماشٍ مِنَ ٱلحَريرِ ٱلأَبْيَضِ ، وَوَضَعَها فَوْقَ ٱلمِنْضَدةِ . وَبَعْدَ أَنْ بَسَطَ ٱلقُماشَ وَتَراجَعَ إِلى ٱلخَلْفِ قَليلًا حَتّى يُشاهِدَها ٱلجَميعُ ، قالَ : « ٱلآنَ أَيُّها ٱلسّادةُ ، هٰذِهِ هِيَ لُؤْلُؤةُ ٱلسَّماءِ ! » وَتَجَمَّعَ ٱلضَّوْءُ في ٱللُّؤْلُؤةِ فَغَدَتْ وَكَأَنَّها قَمَرٌ مُضيءٌ .



قالَ أَرْتُورو مارْتِن : « هٰذا ما كُنْتُ أَخْشاهُ . إِنَّها أَقْرَبُ إِلى ٱلبُرْتُقالةِ مِنْها إِلى ٱللُّؤْلُؤةِ . »

قالَ بالُومارِيس : « إِنَّها كَبيرةٌ ، وَلٰكِنَّ هٰذا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ عادةً ما تَكونُ حَياتُهُ قَصيرةً وَمِنَ ٱلصَّعْبِ بَيْعُهُ . »

قالَ ثالِثُهُمْ : « وَلٰكِنَّنا سَوْفَ نَتَقَدَّمُ بِعَرْضٍ . »

قالَ ٱلتّاجِرُ ٱلرّابِعُ مُؤَكِّدًا : « نَعَمْ سَوْفَ نَتَقَدَّمُ بِعَرْضٍ . »

قالَ مارْتِن : « عَشَرَةُ آلافِ بيزو . »

أَخَذَ بالُومارِيس ٱللُّؤْلُؤةَ بِيَدَيْهِ ٱلبَيْضاوَيْنِ ٱلصَّغيرَتَيْنِ وَنَظَرَ إِلَيْها بِدِقَّةٍ

قائِلًا : « أَعْتَقِدُ أَنَّني أَرى شائِبَةً . عَشَرَةُ آلافٍ كَثيرٌ جِدًّا . »

قالَ أَبي : « لَيْسَ بِها أَيَّةُ شائِبَةٍ ، وَالثَّمَنُ كَما قُلْتُ عِشْرونَ أَلْفَ بيزو . » أَخَذَ التُّجّارُ الآخَرونَ يَتَناقَلونَ اللُّؤْلُؤَةَ فيما بَيْنَهُمْ ، وَيَفْحَصونَها جَيِّدًا ، ثُمَّ قامَ مارْتِن بِقِياسِها وَوَزْنِها ، وَكانَتِ المَقاييسُ مُطابِقَةً تَقْريبًا لِمَقاييسِنا .

قالَ : « أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ بيزو . »

قالَ أَبي : « أَضِفْ إِلَيْها تِسْعَةَ آلافِ بيزو . فَأَنْتَ لَمْ تَرَ وَلَنْ تَرى لُؤْلُؤَةً مِثْلَها . »

قالَ بالُوماريس : « اثْنا عَشَرَ أَلْفًا . »

وَبَعْدَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ ارْتَفَعَ الثَّمَنُ إِلى خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا .

بَدَأَ الغَضَبُ يَتَمَلَّكُ التُّجّارَ الأَرْبَعَةَ . وَأَحْضَرَتْ والِدَتي بَعْضَ المَشْروباتِ البارِدَةِ وَبَعْضَ قِطَعِ الكَعْكِ . وَكُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّها تَقْبَلُ عَرْضَ التُّجّارِ ، وَرَأَيْتُها في الخارِجِ تُحاوِلُ أَنْ تُقْنِعَ أَبي . فَقَدْ كانَتْ تُريدُ شِراءَ عَرَبَةٍ حَمْراءَ تَجُرُّها أَرْبَعَةُ جِيادٍ بَيْضاءَ شاهَدَتْها في لُوريتو .

وَضَعَ أَرْتُورو مارْتِن كوبَهُ قائِلًا : « خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ بيزو آخِرُ عَرْضٍ لَنا . »

رَدَّ أَبي قائِلًا : « إِذًا سَآخُذُها إِلى مِكْسيكو سيتي . »

فَقالَ بالُوماريس : « لَقَدْ قُمْتَ بِهٰذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّويلَةِ إِلى مِكْسيكو سيتي

مِنْ قَبْلُ ، وَلٰكِنَّكَ اكْتَشَفْتَ أَنَّ التُّجّارَ هُناكَ لَيْسوا عَلى اسْتِعْدادٍ لِدَفْعِ أَثْمانٍ أَعْلى مِمّا نَدْفَعُها هُنا ، فَعُدْتَ بَعْدَ ضَياعِ الوَقْتِ وَنَفَقاتِ الرِّحْلَةِ . » وَنَهَضَ قائِلًا : « خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا وَمِئَتانِ وَخَمْسونَ بيزو . هٰذا هُوَ آخِرُ عَرْضٍ لَنا . »

غَضِبَ أَبي مِمّا قالَهُ بالُوماريس عَنْ مِكْسيكو سيتي ، وَقالَ : « رامُون ، اِذْهَبْ وَاسْتَدْعِ العَمَّ غالارْدو . فَلْيَحْضُرْ فَوْرًا مَهْما كانَ الأَمْرُ . اِذْهَبْ بِسُرْعَةٍ . »

وَجَدْتُ العَمَّ غالارْدو نائِمًا فَأَيْقَظْتُهُ ، وَطَلَبْتُ مِنْهُ مُرافَقَتي إِلى بَيْتِنا .

عِنْدَما بَلَغْنا المَنْزِلَ سَمِعْتُ أَرْتُورو مارْتِن يَقولُ : « نَعْرِضُ خَمْسَمِئَةٍ زِيادَةً . » وَكانَ رَدُّ أَبي : « الثَّمَنُ عِشْرونَ أَلْفَ بيزو . »

سادَ الصَّمْتُ عِنْدَما دَخَلْنا ، وَكانَ بالُوماريس مُمْسِكًا بِاللُّؤْلُؤَةِ ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ أَبي وَاسْتَرَدَّها مِنْهُ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلى العَمِّ غالارْدو وَانْحَنى لَهُ تَحِيَّةً قائِلًا :

« إِلَيْكَ لُؤْلُؤَةَ السَّماءِ ، نُقَدِّمُها لَكَ أَنا وَوَلَدي ، لِتُقَدِّمَها بِدَوْرِكَ إِلى مُتْحَفِ المَدينَةِ . »

سَمِعْتُ صُراخًا آتِيًا مِنْ خارِجِ الغُرْفَةِ ، وَكانَ واضِحًا أَنَّهُ صُراخُ أُمّي وَشَقيقَتَيَّ اللَّتَيْنِ كانَتا تَحْلُمانِ بِأَشْياءَ تَرْغَبانِ في شِرائِها .

حَمَلَ الرِّجالُ الأَرْبَعَةُ أَدَواتِهِمْ وَحَقيبَةَ النُّقودِ الكَبيرَةِ ، وَلَبِسوا قُبَّعاتِهِمْ

وَانْصَرَفوا . وَنَظَرْتُ إلى والِدي فَخورًا بانْتِصارِهِ في معْرَكَتِهِ ضِدَّ ٱلتُّجّارِ ٱلأَرْبَعَةِ .

حاوَلَ ٱلعَمُّ غالارْدو أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ شُكْرِهِ فَقالَ : « سَنُقيمُ احْتِفالًا كَبيرًا بِهٰذِهِ ٱلمُناسَبَةِ . »

وَعِنْدَما انْصَرَفَ غالارْدو ، دَخَلَتْ أُمِّي ٱلغُرْفَةَ وٱلدُّموعُ في عَيْنَيْها وَصاحَتْ : « لَقَدْ ضاعَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ٱلجَميلَةُ . »

قالَ أَبي : « لَمْ تَضِعْ . إنَّها سَتَكونُ في مُتْحَفِ ٱلمَدينَةِ حَتَّى يُشاهِدَها ٱلجَميعُ ، وَتَسْتَطيعينَ أَنْتِ أَيْضًا ٱلذَّهابَ إلى هُناكَ وَمُشاهَدَتَها . »

قالَتْ : « لا أَرْغَبُ في مُشاهَدَتِها ثانيةً . لَقَدْ قَدَّمْتَها لِلْمُتْحَفِ لِأَنَّكَ كُنْتَ غاضِبًا مِنَ ٱلتُّجّارِ . »

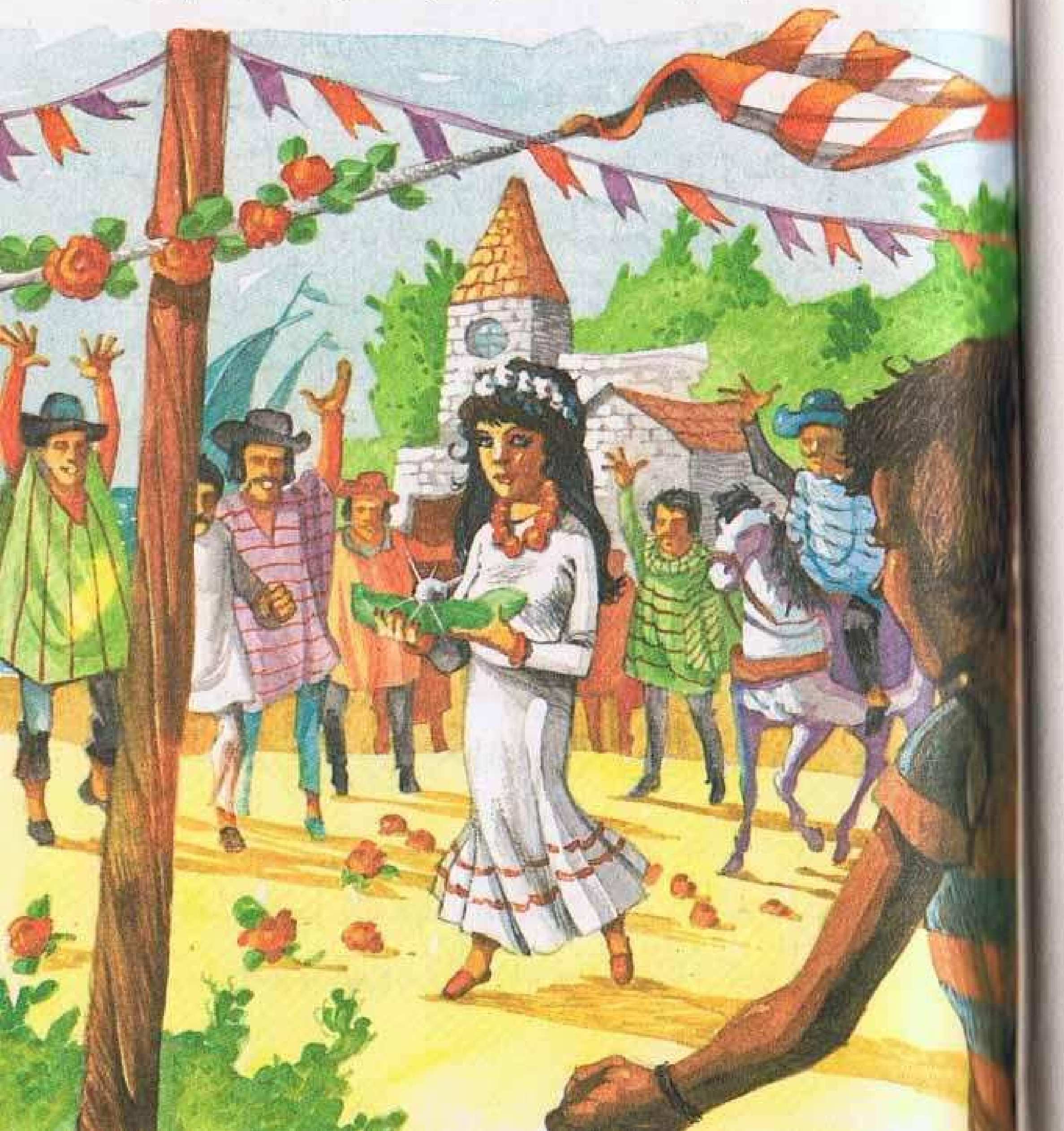
قالَ أَبي : « إنَّها هَدِيَّةٌ مِنْ أُسْرَةِ سالازار وَوَلَدِهِ وَأَحْفادِهِما . وَسَيُبارِكُ ٱللهُ هٰذِهِ ٱلأُسْرَةَ في ٱلسَّماءِ ، مِنَ ٱلآنَ وَإلى ٱلأَبَدِ . »

لَمْ تَزِدْ والِدَتي شَيْئًا عَمَّا قالَتْهُ ، وَلٰكِنْ عِنْدَما أُقيمَ ٱلاحْتِفالُ اعْتَذَرَتْ عَنْ حُضورِهِ لِشُعورِها بِصُداعٍ في رَأْسِها .

الفَصْلُ ٱلحادي عَشَرَ

اليَوْمُ ٱلعَظيمُ

بَعْدَ خَمْسَةِ أَيّامٍ أُقيمَ احْتِفالٌ كَبيرٌ في أَكْبَرِ مَيادينِ لاباز لِتَقْديمِ لُؤْلُؤَةِ



السَّماءِ إلى مُتْحَفِ المَدينةِ . وَكانَ يَوْمًا مِنْ أَعْظَمِ أَيَّامِ لاباز . اِمْتَلأَ المَيْدانُ بِالأَزْهارِ ، وَوَقَفَتْ في وَسَطِهِ فَتاةٌ صَغيرةٌ جَميلةٌ تَرْتَدي مَلابِسَ حَريرِيَّةً بَيْضاءَ ، وَتُزَيِّنُ شَعْرَها بِأَزْهارٍ بَيْضاءَ ، وَتُمْسِكُ بِيَدِها اللُّؤْلُؤَةَ السَّوْداءَ العَظيمةَ .

وَغَصَّ المَيْدانُ بِالزُّوَّارِ ، وَكانَ واضِحًا أَنَّ مَدينَتَنا لاباز لَمْ تَشْهَدْ مِنْ قَبْلُ مِثْلَ هٰذِهِ الحُشودِ . فَقَدْ جاءَ النَّاسُ سَيْرًا عَلى أَقْدامِهِمْ ، وَعَلى ظُهورِ حَميرِهِمْ وَخُيولِهِمْ مِنْ أَماكِنَ بَعيدةٍ مِثْلِ لوريتو في الشَّمالِ وَسانْتو توماس في الجَنوبِ ، وَجاءَ آخَرونَ بِالقَوارِبِ مِنْ جُزُرِ بَحْرِ ڤيرْميلْيون . وَجاءَ أَيْضًا هُنودٌ مِنْ تِلالِ جِبالِ سِييرًا مورينا المُوحِشةِ يَرْتَدونَ جُلودَ الأَرانِبِ . وَكانَ العَمُّ غالارْدو سَعيدًا بِرُؤْيَتِهِمْ .

بَدَأَ الاحْتِفالُ بِأَنْ حَمَلوا الفَتاةَ وَساروا بِها حَوْلَ المَيْدانِ مَرَّتَيْنِ ، وَهُمْ يَرْقُصونَ وَيُغَنُّونَ ، ثُمَّ تَوَجَّهوا بِها إلى البَحْرِ حَيْثُ كانَتْ سُفُنُ سالازار راسِيةً . وَكانَ أَبي قَدْ أَعَدَّ ذٰلِكَ حَتَّى يُثْبِتَ أَنَّ اللُّؤْلُؤَةَ قَدْ حازَتْ رِضا النَّاسِ ، وَأَنَّ أُسْرَةَ سالازار سَوْفَ تَزْدادُ ثَراءً وَقُوَّةً .

وَقَفَ العَمُّ غالارْدو بِجِوارِ الفَتاةِ ، بَيْنَما أَخَذَ النَّاسُ يَلْتَفُّونَ حَوْلَهُ . وَكانَتْ سُفُنُنا الزَّرْقاءُ الخَمْسُ تَقِفُ في مِياهِ الخَليجِ الهادِئةِ ، وَقَدْ زَيَّنَتْها حِبالٌ مِنْ أَعْلامٍ مُلَوَّنةٍ .

رَفَعَ العَمُّ غالارْدو يَدَيْهِ قائِلًا : « نَدْعوكَ يا إِلٰهي أَنْ تُبارِكَ أُسْرَةَ سالازار الَّتي شَرَّفَتْ مَدينَتَنا اليَوْمَ . وَنَأْمُلُ أَنْ يَجِدوا لُؤْلُؤَةً كَبيرةً أُخْرى كَالَّتي

قَدَّموها لِمُتْحَفِنا ، وَأَنْ تُبْحِرَ سُفُنُهُمْ إلى أَماكِنِ صَيْدِ اللُّؤْلُؤِ ، وَتَعودَ سالِمةً إلى مَوْطِنِها . »

بَعْدَ أَنْ بارَكَ العَمُّ غالارْدو السُّفُنَ ، حَمَلَ المُحْتَفِلونَ الفَتاةَ إلى المَيْدانِ مِنْ جَديدٍ ، وَكانَتْ تَحْمِلُ في يَدِها لُؤْلُؤَةَ السَّماءِ حَتَّى يَراها كُلُّ النَّاسِ . لَقَدْ كانَ يَوْمًا رائِعًا شَعَرَ فيهِ النَّاسُ ، فُقَراؤُهُمْ وَأَغْنِياؤُهُمْ عَلى السَّواءِ ، أَنَّ اللُّؤْلُؤَةَ مِلْكٌ لَهُمْ .

بَعْدَ أَنْ أَعادوا الفَتاةَ إلى المَيْدانِ ، رَكَعْتُ عَلى رُكْبَتَيَّ وَشَكَرْتُ اللهَ الَّذي وَفَّقَني في العُثورِ عَلى اللُّؤْلُؤَةِ الَّتي شَعَرَ الجَميعُ أَنَّها مِلْكٌ لَهُمْ .

كُنْتُ أَهُمُّ بِمُغادَرةِ المَيْدانِ عِنْدَما ناداني الإِشْبيلِيُّ قائِلًا : « حَقًّا لَقَدْ كانَ يَوْمًا عَظيمًا كَاليَوْمِ الَّذي وَجَدْتُ فيهِ لُؤْلُؤَتي في الخَليجِ العَرَبِيِّ . لَقَدْ سَمِعْتُ حِكاياتٍ كَثيرةً عَنْ لُؤْلُؤَتِكَ . ما وَزْنُها الحَقيقِيُّ ؟ »

أَجَبْتُ : « أَكْثَرُ مِنْ سِتِّينَ قيراطًا . » وَفَضَّلْتُ أَنْ أَذْكُرَ لَهُ الحَقيقةَ لِأَنَّني أَعْرِفُ أَنَّني مَهْما قُلْتُ فَسَتَكونُ لُؤْلُؤَتُهُ أَكْبَرَ .

قالَ : « كانَتْ لُؤْلُؤَتي أَكْبَرَ . هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ لُؤْلُؤَةً تَمْلأُ يَدَيْكَ الاثْنَتَيْنِ ؟ هٰكَذا كانَتِ اللُّؤْلُؤَةُ الَّتي بِعْتُها لِلشَّاهِ مَلِكِ فارِسَ . »

قُلْتُ : « لا شَكَّ أَنَّها لُؤْلُؤَةٌ رائِعةٌ . »

لَمْ أُحِسَّ في ذٰلِكَ اليَوْمِ بِنَفْسِ الإِحْساسِ الَّذي كُنْتُ أُحِسُّهُ مِنْ قَبْلُ نَحْوَ الإِشْبيلِيِّ وَنَحْوَ قَصَصِهِ . لَقَدْ قالَ يَوْمًا إِنِّي أَخافُ الغَوْصَ ، وَهَأَنَذا قَدْ

غُصْتُ . وَكانَ يَقولُ إِنَّني لَنْ أَسْتَطيعَ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا ، وَهَأَنْذا قَدْ فَعَلْتُ : وَجَدْتُ لُؤْلُؤَةَ ٱلسَّماءِ .

سَأَلْتُهُ : « كَمْ كانَ وَزْنُ لُؤْلُؤَتِكَ ؟ »

أَجابَ : « لَقَدْ نَسيتُ . إِنَّ ٱلأَوْزانَ لا تُهِمُّني . وَلٰكِنْ أَخْبِرْني هَلْ كانَ بِلُؤْلُؤَتِكَ شائِبَةٌ ؟ »

أَجَبْتُ : « إِنَّها لَيْسَتْ لُؤْلُؤَتي . »

قالَ : « أَنا أَعْرِفُ ذٰلِكَ ، وَلَسْتُ مُقْتَنِعًا بِما فَعَلْتَ . وَلٰكِنْ هَلْ بِتِلْكَ ٱللُّؤْلُؤَةِ شائِبَةٌ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « كَلَّا . لَيْسَ بِها عَيْبٌ واحِدٌ ، وَهِيَ مُسْتَديرَةٌ تَمامًا . »

رَدَّ قائِلًا : « إِنَّ لُؤْلُؤَةً مُسْتَديرَةً خالِيَةً مِنَ ٱلشَّوائِبِ وَتَزِنُ سِتِّينَ قيراطًا تُساوي .. حَسَنًا ، إِنَّها تُساوي مَبْلَغًا ضَخْمًا مِنَ ٱلمالِ . » ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ خافِتٍ : « لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّكَ وَجَدْتَها في خَليجِ بِشِلِنْك . »

قُلْتُ : « بِٱلقُرْبِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلمَكانِ . »

سَأَلَني : « كَمْ يَبْعُدُ عَنْ ذٰلِكَ ٱلمَكانِ ؟ إِلى ٱلشَّمالِ ؟ إِلى ٱلجَنوبِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « في مَكانٍ ما هُناكَ . هٰذا ما أَسْتَطيعُ أَنْ أَقولَهُ . »

تَصافَحْنا ثُمَّ ٱنْصَرَفَ .

كانَ ٱللَّيْلُ قَدْ حَلَّ وَعِنْدَما ٱقْتَرَبْتُ مِنْ بَوّابَةِ مَنْزِلِنا ، بَرَزَ لي مِنَ ٱلظَّلامِ رَجُلٌ

وَناداني بِٱسْمي . لَمْ يَكُنْ سِوى سوتو لوزون . سَأَلْتُهُ في ٱلحالِ : « هَلْ أَعْجَبَكَ ٱلاحْتِفالُ ؟ »

أَجابَ : « لَقَدْ شاهَدْتُ ٱلفَتاةَ . شاهَدْتُها في ٱلمَيْدانِ وَفي ٱلشَّوارِعِ ، وَعِنْدَ ٱلبَحْرِ وَسَمِعْتُ ٱلجَميعَ يُغَنّونَ . » وَرَبَّتَ عَلى كَتِفي قائِلًا : « إِنَّكَ لا زِلْتَ صَبِيًّا ، وَهُناكَ ٱلكَثيرُ مِمّا لا تَعْرِفُهُ ، لِذا لَزِمَ أَنْ أَذْكُرَ لَكَ أَنَّ ٱللُّؤْلُؤَةَ لَيْسَتْ لُؤْلُؤَةَ ٱلمُتْحَفِ وَلَيْسَتْ لُؤْلُؤَةَ ٱلمَدينَةِ ، وَلَيْسَتْ لُؤْلُؤَةَ ٱلنّاسِ ٱلَّذينَ يُغَنّونَ لَها . إِنَّها مِلْكُ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ، وَسَوْفَ يَسْتَرِدُّها يَوْمًا ما . » ثُمَّ ٱسْتَدارَ وَٱخْتَفى في ٱلظَّلامِ .

كُنْتُ في صَباحِ ٱليَوْمِ ٱلتّالي أَسيرُ مَعَ أَبي نَحْوَ ٱلشّاطِئِ عِنْدَما سَأَلَني : « هَلْ يَسْمَحُ لي لوزون بِٱلبَحْثِ عَنِ ٱللُّؤْلُؤِ في ٱلبُحَيْرَةِ ؟ »

أَجَبْتُ : « كَلَّا ، وَلَيْسَ في ٱسْتِطاعَتي أَنْ أَسْأَلَهُ . »

قالَ : « إِنَّ ٱلطَّريقَ طَويلٌ إِلى سيرالْقو ، وَٱلمَرَّةَ ٱلأَخيرَةَ ٱلَّتي ذَهَبْنا فيها إِلى هُناكَ لَمْ نَجِدْ سِوى ٱلقَليلِ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ . أَمّا في تِلْكَ ٱلبُحَيْرَةِ فَرُبَّما وَجَدْنا لُؤْلُؤَةً مُماثِلَةً لِتِلْكَ ٱللُّؤْلُؤَةِ ٱلعَظيمَةِ . »

فَأَخْبَرْتُ أَبي بِما دارَ بَيْني وَبَيْنَ لوزون في ٱللَّيْلَةِ ٱلسّابِقَةِ .

قالَ : « إِنَّ لوزون هِنْدِيٌّ عَجوزٌ ساذَجٌ . »

أَجَبْتُهُ : « رُبَّما كانَ كَذٰلِكَ ، وَلٰكِنَّها بُحَيْرَتُهُ وَلَنْ يَسْمَحَ لَكَ بِٱلغَوْصِ فيها . »

الفصلُ ٱلثّاني عشَر

العاصِفةُ

أَبْحرتِ ٱلسُّفُنُ في ٱلصَّباحِ ٱلتّالي إلى جزيرةِ سِيرالْقو . كانَتْ تَبْدو جميلةً في طِلائِها ٱلجديدِ وَأَعْلامِها ٱلمَرْفوعةِ . وَكانَتْ هُناكَ رياحٌ خفيفةٌ تَهُبُّ مِنَ ٱلجنوبِ ، وَبَدَتِ ٱلسَّماءُ زَرْقاءَ قاتِمةً مِثْلَ ٱلبَحْرِ . لَقَدْ كانَ يَوْمًا جميلًا .

سَكَنَتِ ٱلرِّياحُ تمامًا بَعْدَ ٱلظُّهْرِ وَأَصْبَحَ ٱلجَوُّ حارًّا جِدًّا ، ثُمَّ ما لَبِثَتْ أَنْ هَبَّتِ ٱلرِّياحُ مِنَ ٱلجِبالِ فَخَفَّتْ حِدَّةُ ٱلحَرارةِ . وَعِنْدَما حانَ وَقْتُ ٱلعَشاءِ سَكَنَتِ ٱلرِّياحُ مِنْ جديدٍ ، وَكادَ ٱلهَواءُ أَنْ يَنْعَدِمَ ، وَصَعُبَ ٱلتَّنَفُّسُ ، وَتَجَمَّعَتِ ٱلسُّحُبُ في ٱلسَّماءِ .

تَوَقَّفَتْ أُمّي عَنْ تناوُلِ طَعامِها ، وَٱتَّجَهَتْ إلى ٱلنّافِذةِ وَنَظَرَتْ إلى ٱلخارِجِ . كانَتْ دائِمًا تَخْشَى ٱلجَوَّ وَتَقَلُّباتِهِ عِنْدَما يَكونُ أَبي في ٱلبَحْرِ .

قُلْتُ : « إنَّها رياحٌ جَبَلِيَّةٌ . »

قالَتْ : « كَلّا ، إنَّها ٱلرِّياحُ ٱلسّاخِنةُ . »

إنَّ هٰذِهِ ٱلرِّياحَ ٱلعاتيةَ نَعْرِفُها وَنَخْشاها جميعًا . وَتَبْدَأُ عادةً بِهٰذِهِ ٱلطَّريقةِ .

خَرَجْتُ إلى ٱلطَّريقِ وَنَظَرْتُ إلى ٱلسَّماءِ ، لَمْ أَرَ بِها نَجْمةً واحِدةً .

وَاسْتَمَرَّتِ ٱلرِّياحُ تَهُبُّ حامِلةً مَعَها رائِحةَ ٱلبَحْرِ . وَعُدْتُ لِأَتَناوَلَ عَشائي ، وَكُنّا نَسْمَعُ صَفيرَ ٱلرِّياحِ بَيْنَ ٱلأَشْجارِ وَنَحْنُ نَتَناوَلُ ٱلطَّعامَ . وَنَهَضْتُ مِنْ مَكاني وَتَوَجَّهْتُ نَحْوَ ٱلبابِ كَيْ أُغْلِقَهُ ، وَما كِدْتُ أَخْطو خُطْوَتَيْنِ حَتَّى ٱنْغَلَقَ ٱلبابُ بِشِدَّةٍ وَٱنْطَفَأَ ٱلمِصْباحُ . وَحاوَلْتُ أَنْ أُشْعِلَهُ وَلٰكِنَّ ٱلهَواءَ ٱلَّذي كانَ يَتَسَرَّبُ مِنْ بَيْنِ قُضْبانِ ٱلنّافِذةِ حالَ دونَ إشْعالِهِ ، فَقالَتْ أُمّي بِصَوْتٍ خفيضٍ : « ٱلرِّياحُ ٱلسّاخِنةُ ! »

تَمْتَمَتْ أُخْتي : « ٱلرِّياحُ ٱلسّاخِنةُ ! »

ذَهَبْتُ إلى ٱلنّافِذةِ وَنَظَرْتُ مِنْها ، فَلَمْ أَرَ في ٱلسَّماءِ نَجْمةً واحِدةً . وَكانَ صَوْتُ ٱلرِّياحِ أَشْبَهَ بِصَرَخاتِ خَوْفٍ يُطْلِقُها أَلْفُ طائِرٍ مِنَ ٱلطُّيورِ ٱلبَحْرِيَّةِ .

قُلْتُ : « لا بُدَّ أَنَّ سُفُنَنا أَحَسَّتْ بِالعاصِفةِ وَهِيَ قادِمةٌ فَتَوَجَّهَتْ إلى خَليجِ بشِيلِنْك أَوْ إلى أَيِّ خَليجٍ مِنَ ٱلخُلْجانِ ٱلآمِنةِ ، وَهِيَ كثيرةٌ وَمُنْتَشِرةٌ بَيْنَنا وَبَيْنَ جَزيرةِ سِيرالْقو . »

نَهَضَتْ والِدَتي وَحاوَلَتْ فَتْحَ ٱلبابِ ، ثُمَّ صَرَخَتْ قائِلةً : « ساعِدْني . »

قُلْتُ : « لَنْ تَسْتَطيعي أَنْ تَتَجاوَزي ٱلفِناءَ حَتَّى وَلَوْ حَبَوْتِ عَلى يَدَيْكِ وَرُكْبَتَيْكِ . إنَّ ٱلسُّفُنَ في أَمانٍ ، فَلا تَخافي . مَعَهُمْ أَعْظَمُ رُبّانٍ عَرَفَهُ ٱلبَحْرُ ، وَكَمِ ٱجْتازَ مِنْ عَواصِفَ ! »

إرْتَفَعَ صَفيرُ ٱلرِّياحِ لِدَرَجةٍ لَم نَسْتَطِعْ مَعَها سَماعَ أَصْواتِنا ، فَجَلَسْنا مُتَجاوِرينَ حَوْلَ ٱلمائِدةِ في ٱلغُرْفةِ ٱلمُظْلِمةِ وَلَمْ نُحاوِلِ ٱلكَلامَ . وَجاءَتِ

الخادِماتُ الهِنْديّاتُ مِنَ المَطْبَخِ وَجَلَسْنَ عَلى الأَرضِ إلى جِوارِنا . كانَ زَوْجا اثْنَتَيْنِ مِنْهُنَّ يَعْمَلانِ فَوْقَ سُفُنِنا .

إسْتَمَرَّتِ العاصِفَةُ حَتّى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، وَخَفَّتْ شِدَّةُ الرِّياحِ قُبَيْلَ الفَجْرِ ، ثُمَّ سَكَنَتْ تَمامًا عِنْدَ طُلوعِ النَّهارِ . وَذَهَبْنا جَميعًا إلى الشّاطِئِ لِاسْتِقْبالِ السُّفُنِ العائِدَةِ . وَكانَ مِنْ آثارِ العاصِفَةِ امْتِلاءُ الفِناءِ بِأَوْراقِ الأَشْجارِ المُتَساقِطَةِ ، وَكَذٰلِكَ امْتِلاءُ المَيْدانِ بِأَحْجارِ سُقوفِ البُيوتِ المُجاوِرَةِ .

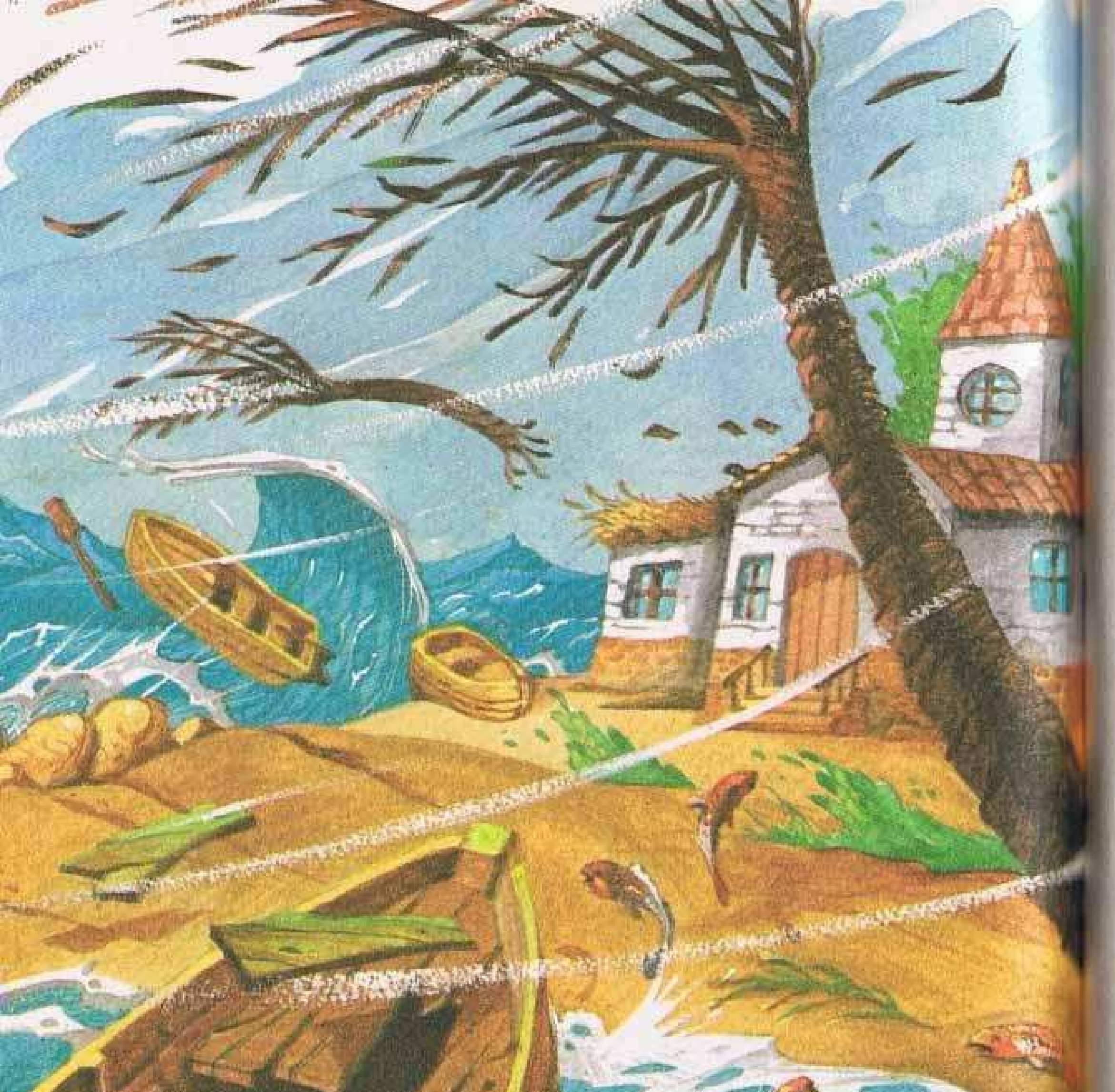
بَيْنَما كُنّا نُسْرِعُ إلى الشّاطِئِ لَحِقَتْ بِنا أَعْدادٌ كَبيرَةٌ مِنَ النّاسِ ، كانَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجٌ أَوْ أَخٌ أَوْ صَديقٌ يَعْمَلُ عَلى سُفُنِنا .

كانَ الشّاطِئُ مُغَطًّى بِالأَعْشابِ البَحْرِيَّةِ وَالأَسْماكِ المَيِّتَةِ . وَقَدْ قَذَفَتِ الأَمْواجُ بِالزَّوارِقِ الرّاسِيَةِ بِالخَليجِ عَلى الرِّمالِ . وَكانَ مِنَ المَأْلوفِ قَبْلَ هُبوبِ العاصِفَةِ إخْراجُ الزَّوارِقِ مِنَ الماءِ وَرَبْطُها إلى الصُّخورِ عَلى الشّاطِئِ ، وَقَدْ حالَ هُبوبُ العاصِفَةِ المُفاجِئُ دونَ ذٰلِكَ .

كانَ العَمُّ غالاردو قَدْ أَسْرَعَ إلى الشّاطِئِ بِشَعْرِهِ الأَبْيَضِ وَعَباءَتِهِ المَرْفوعَةِ إلى ما فَوْقَ رُكْبَتَيْهِ .

قالَ : « سَتَعودُ السُّفُنُ حالًا . إنَّ اللهَ يَرْعاها . لا توجَدُ خُلْجانٌ قَريبَةٌ مِنْ هُنا ، لِذا رُبَّما لا تَصِلُ قَبْلَ الظُّهْرِ . عودوا إلى بُيوتِكُمُ الآنَ مُطْمَئِنّينَ ، وَتَوَكَّلوا عَلى اللهِ ، وَانْتَظِروا . »

لَمْ يَنْصَرِفْ أَحَدٌ وَانْقَضى الصَّباحُ وَكَذا الظَّهيرَةُ ، وَلَمّا حَلَّ الغُروبُ



شاهَدَ أَحَدُهُمْ زَوْرَقًا بَعيدًا في البَحْرِ . وَعِنْدَما اقْتَرَبَ وَاسْتَدارَ نَحْوَ الخَليجِ عَرَفْتُ أَنَّهُ لوزون في قارِبِهِ الأَحْمَرِ .

شَدَّ لُوزُون قارِبَهُ إلى ٱلشَّاطِئِ بَعِيدًا عَنِ ٱلجُموعِ ٱلمُحْتَشِدَةِ هُناكَ ، ثُمَّ جَلَسَ فَتَوَجَّهْتُ إلَيْهِ وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ شاهَدْتَ أَيًّا مِنَ ٱلسُّفُنِ ؟ »

أَشْعَلَ سيجارةً ، وَأَخَذَ يُدَخِّنُ لَحْظَةً ثُمَّ قالَ : « لَمْ أَرَ سُفُنَكُمْ وَلَنْ أَراها أَبَدًا ، وَأَنْتَ أَيْضًا لَنْ تَراها ثانِيةً . »

أَغْضَبَنِي قَوْلُهُ هٰذا ، فَسَأَلْتُهُ : « أَ تَعْنِي أَنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ قَدْ حَطَّمَها ؟ »

أَجابَ : « كَلَّا ! أنا لَمْ أَقُلْ ذٰلِكَ . العاصِفَةُ هِيَ ٱلَّتِي فَعَلَتْ ذٰلِكَ ، وَلَنْ تَراها أَبَدًا . »

سَأَلْتُهُ : « هَلْ تَعْنِي أَنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ هُوَ ٱلَّذِي أَثارَ العاصِفَةَ ؟ »

لَمْ يُجِبْ ، فَابْتَعَدْتُ عَنْهُ غاضِبًا ، وَعُدْتُ إلى حَيْثُ تَجَمَّعَ ٱلنَّاسُ .

عِنْدَما أَقْبَلَ ٱللَّيْلُ ، كانَ لُوزُون ما زالَ جالِسًا يُدَخِّنُ ٱلسَّجائِرَ وَيَنْتَظِرُ . أَشْعَلْنا نارًا ، وَٱلْتَفَفْنا حَوْلَها ، وَتَزايَدَ عَدَدُ ٱلنَّاسِ وَأَحْضَرَ لَنا بَعْضُ ٱلأَصْدِقاءِ طَعامًا وَماءً مِنَ ٱلمَدينَةِ .

اِنْصَرَفَ بَعْضُ ٱلنَّاسِ ، وَلٰكِنَّنا أَبْقَيْنا عَلى ٱلنَّارِ مُشْتَعِلَةً حَتَّى تُرْشِدَ ٱلسُّفُنَ لِلْوُصولِ إلى لاباز في أَمانٍ .

عِنْدَما أَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ كانَتِ ٱلسَّماءُ صافِيَةً وَكانَ ٱلبَحْرُ هادِئًا . وَبَدَتِ ٱلجُزُرُ ٱلنَّائِيَةُ كَما لَوْ كانَتْ قَرِيبَةً وَفي مُتَناوَلِ ٱليَدِ . وَبِمُجَرَّدِ أَنْ أَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ أَشارَ صَبِيٌّ ، كانَ يَجْلِسُ عَلى جِدارِ صَدِّ أَمْواجِ ٱلبَحْرِ ، بِيَدِهِ نَحْوَ

ٱلجَنوبِ ، وَعِنْدَما نَظَرْتُ إلى هُناكَ شاهَدْتُ رَجُلًا يَسيرُ مُتَرَنِّحًا عَلى ٱلشَّاطِئِ . كانَ يَقَعُ مَرَّةً ، وَيَظَلُّ ساكِنًا ثُمَّ يَنْهَضُ وَيَسْتَأْنِفُ ٱلتَّحَرُّكَ عَلى يَدَيْهِ وَرُكْبَتَيْهِ ، ثُمَّ يَنْهَضُ واقِفًا . في أَوَّلِ ٱلأَمْرِ ظَنَنْتُ أَنَّهُ رَجُلٌ ثَمِلٌ قادِمٌ مِنَ ٱلمَدينَةِ ، ثُمَّ تَبَيَّنْتُ أَنَّهُ لا يَرْتَدي قَميصًا ، وَأَنَّ وَجْهَهُ مُلَطَّخٌ بِٱلدِّماءِ . سَقَطَ ٱلرَّجُلُ ثانِيَةً وَرَقَدَ هُناكَ بَعْضَ ٱلوَقْتِ ، ثُمَّ نَهَضَ وَأَقْبَلَ نَحْوَنا .

عِنْدَما اقْتَرَبَ عَرَفْتُهُ ، فَرَكَضْتُ نَحْوَهُ .. إنَّهُ ٱلإشْبيلِيُّ . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلَيْهِ سَقَطَ عَلى قَدَمَيَّ ، ثُمَّ نَهَضَ مِنْ جَديدٍ وَنَظَرَ إلَيَّ . كانَتْ عَيْناهُ مُخيفَتَيْنِ .

قالَ : « ضاعَتْ ! ضاعَتْ ! ضاعَتِ ٱلسُّفُنُ ! » ثُمَّ سَقَطَ عَلى ٱلرِّمالِ يُتَمْتِمُ بِكَلامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ .

الفصلُ الثالثَ عشرَ

اختِفاءُ اللُّؤلُؤةِ

فُقِدَ اثنانِ وَثلاثونَ رَجُلًا مِنْ رِجالِنا مَعَ سُفُنِنا ، وَنَجا رَجُلٌ واحِدٌ فَقَطْ – الإشْبيليُّ .

في اليَوْمِ الرّابِعِ بَعْدَ العاصِفةِ أُقيمَتْ صَلاةٌ لِلْمَوْتى . وَتَوافَدَ النّاسُ مِنَ المَدينةِ وَمِنَ التِّلالِ . كانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ قائِلًا :

« يا لَلْغَرابةِ ! إنَّ أَهَمَّ حَدَثَيْنِ في تاريخِ مَدينةِ لاباز قَدْ وَقَعا في أَقَلَّ مِنْ شَهْرٍ : أَوَّلُهُما العُثورُ عَلى اللُّؤْلُؤةِ العَظيمةِ ، وَثانيهُما العاصِفةُ الَّتي حَطَّمَتِ السُّفُنَ وَقَتَلَتْ عَدَدًا كَبيرًا مِنَ الرِّجالِ . » وَشَعَرَ الكَثيرونَ – وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِذٰلِكَ أَحَدٌ – بِارْتِباطٍ وَثيقٍ بَيْنَ الحَدَثَيْنِ .. ارْتِباطٍ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ فَهْمَهُ .

كُنْتُ أَنا أَحَدَ مَنْ كانَ لَدَيْهِمْ هٰذا الإحْساسُ . جَلَسْتُ بِجِوارِ والِدَتي نَسْتَمِعُ إلى حَديثِ العَمِّ غالارْدو في ذٰلِكَ الصَّباحِ الحَزينِ . لَمْ أُصْغِ لِحَديثِهِ تَمامًا ، وَكانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ أَبي وَخِدْماتِهِ وَهَداياهُ العَديدةِ لِلْمَدينةِ وَبِصِفةٍ خاصَّةٍ اللُّؤْلُؤةِ العَظيمةِ .

غادَرْتُ المَكانَ وَتَحَدَّثْتُ مَعَ بَعْضِ أَصْدِقائي ، وَجاءَ الإشْبيليُّ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلى كَتِفي . بَيْنَما أَنا واقِفٌ شاهَدْتُ سوتو لوزونَ يَقِفُ بَعيدًا . كانَ يَنْظُرُ إلى النّاسِ ، وَهُمْ يُغادِرونَ المَكانَ ، لَمْ يَنْظُرْ إِلَيَّ أَبَدًا . وَعِنْدَما تَرَكْتُ

الإشْبيليَّ ، سَمِعْتُ وَقْعَ خُطواتٍ خَلْفي ، وَلَمّا التَفَتُّ شاهَدْتُهُ عَلى بُعْدِ مِتْرٍ واحِدٍ فَقَطْ .

قالَ : « أَقولُ لَكَ مِنْ جَديدٍ إنَّ اللُّؤْلُؤةَ مِلْكٌ لِشَيْطانِ البَحْرِ ، وَأَقولُ هٰذا لِأَنَّكَ أَنْتَ الَّذي وَجَدْتَها . »

لَمْ أُجِبْهُ ، وَاتَّخَذْتُ طَريقي بَيْنَ النّاسِ قاصِدًا مَنْزِلي لِأَنْضَمَّ إلى والِدَتي وَشَقيقَتي . وَلٰكِنَّني عُدْتُ لِأَتَحَدَّثَ إلى العَمِّ غالارْدو فَلَمْ أَجِدْهُ في أَيِّ مَكانٍ .

تَوَجَّهْتُ إلى مُتْحَفِ المَدينةِ وَأَنا أُفَكِّرُ في السُّفُنِ الَّتي تَحَطَّمَتْ في البَحْرِ وَفي أَبي الَّذي فَقَدْتُهُ ، وَفيما قالَهُ لوزون ، وَوَقَفْتُ أَنْظُرُ إلى اللُّؤْلُؤةِ . وَتَلَفَّتُّ حَوْلي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا وَنادَيْتُ عَلى العَمِّ غالارْدو فَلَمْ أَتَلَقَّ جَوابًا . فَمَدَدْتُ يَدي بِسُرْعةٍ وَأَخَذْتُ اللُّؤْلُؤةَ وَوَضَعْتُها في جَيْبي ثُمَّ غادَرْتُ المُتْحَفَ .

كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّني أَغْلَقْتُ البابَ الكَبيرَ عِنْدَما دَخَلْتُ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ مَفْتوحًا . خَرَجْتُ وَخَطَوْتُ خُطْوَتَيْنِ وَوَجَدْتُني أُواجِهُ الإشْبيليَّ .

قالَ : « لَقَدْ كُنْتُ عائِدًا لِأَلْتَقِطَ قُبَّعَتي ، هٰذا إذا لَمْ يَكُنْ أَحَدُ لُصوصِ المَدينةِ قَدْ سَرَقَها . »

أَفْسَحْتُ لَهُ الطَّريقَ لِيَمُرَّ . وَنَظَرَ إِلَيَّ فَلَمْ أَهْتَمَّ ، وَواصَلْتُ سَيْري . وَتَساءَلْتُ في نَفْسي : « هَلْ رَأى الشَّيْءَ الثَّقيلَ الكَبيرَ الَّذي في جَيْبي ؟ هَلْ أَدْرَكَ أَنَّهُ اللُّؤْلُؤةُ ؟ »

في المَساءِ اكْتَشَفَ حارِسُ المُتْحَفِ اخْتِفاءَ اللُّؤْلُؤةِ . وَكانَتْ أُمّي تَكْتُبُ خِطابًا عِنْدَما سَمِعَتْ دَقًّا عَنيفًا عَلى بابِ بَيْتِنا ، فَأَلْقَتِ القَلَمَ جانِبًا وَفَتَحَتِ

الباب لِيَدْخُلَ ٱلعَمُّ غالارْدو صائِحًا : « لَقَدِ ٱخْتَفَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ! ٱخْتَفَتْ ! »

سَأَلَتْهُ مُنْدَهِشَةً : « ٱخْتَفَتْ ؟ »

أُجابَها قائِلًا : « سُرِقَتْ ! »

قَفَزْتُ مِنْ مَكاني وَتَبِعْتُهُ إلى ٱلمُتْحَفِ . كانَ ٱلنّاسُ قَدْ تَجَمَّعوا في الخارِجِ ، فَقادَني إلى حَيْثُ كانَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ مَوْضوعَةً .

قالَ أَحَدُهُمْ : « إِنَّني أَعْرِفُ ٱلهِنْدِيَّ ٱلَّذي سَرَقَها . »

قالَ آخَرُ : « شاهَدْتُ رَجُلًا غَريبًا يَبْتَعِدُ مُسْرِعًا عَنِ ٱلمُتْحَفِ . »

أَصْغَيْتُ ، عَلى حينَ كانَتِ ٱلنِّساءُ يَبْكينَ ، وَٱلعَمُّ غالارْدو يَدْعو ٱللهَ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ أَنْ يَجِدوا ٱللُّؤْلُؤَةَ . وَكِدْتُ أَقولُ : « أَنا أَخَذْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ . إِنَّها في غُرْفَتي ، أَخْفَيْتُها في فِراشي . اِنْتَظِروا حَتّى أَذْهَبَ وَأُحْضِرَها . » ثُمَّ فَكَّرْتُ في ٱلسُّفُنِ ٱلَّتي فَقَدْناها . وَسَمِعْتُ مِنْ جَديدٍ صَوْتَ لوزون يَتَرَدَّدُ في سَمْعي : « ٱللُّؤْلُؤَةُ مِلْكٌ لِشَيْطانِ ٱلبَحْرِ . لَقَدْ أَتى وَأَخَذَها . »

اِنْصَرَفْتُ في هُدوءٍ ، وَتَناوَلْتُ عَشائي ، ثُمَّ أَخْفَيْتُ ٱللُّؤْلُؤَةَ تَحْتَ قَميصي وَاتَّجَهْتُ إلى ٱلشّاطِئِ سالِكًا مَمَرًّا صَغيرًا حَتّى لا يَراني أَحَدٌ . وَوَجَدْتُ قارِبًا أَعْرِفُ صاحِبَهُ . كانَ قارِبَ تَجْذيفٍ ، وَمَجاذيفُهُ ثَقيلَةٌ وَلَمّا لَمْ يَكُنْ هُناكَ غَيْرُهُ كانَ لا بُدَّ مِنِ ٱسْتِخْدامِهِ .

عِنْدَما بَزَغَ ٱلقَمَرُ ، اتَّجَهْتُ نَحْوَ ٱلبُحَيْرَةِ حَيْثُ يَعيشُ شَيْطانُ البَحْرِ ، وَكَما قالَ لوزون : « شَيْطانُ ٱلبَحْرِ يَعيشُ هُنا في هٰذِهِ ٱلبُحَيْرَةِ . »

وَٱلآنَ آمَنْتُ بِصِدْقِ قَوْلِهِ .

الفصلُ ٱلرّابعَ عشَر

الإشبيليُّ يَتْبَعُني

وَصَلْتُ إلى مَدْخَلِ ٱلبُحَيْرَةِ عِنْدَ شُروقِ ٱلشَّمْسِ ، وَبَلَغْتُ ٱلصُّخورَ وَٱلكَهْفَ . كانَ ٱلضَّبابُ ٱلأَحْمَرُ ٱلكَثيفُ يَحْجُبُ ٱلبُحَيْرَةَ تَمامًا لِدَرَجَةٍ تَعَذَّرَتْ مَعَها رُؤْيَةُ ٱلشّاطِئِ ٱلبَعيدِ حَيْثُ يُقيمُ لوزون ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا وَأَحْسَسْتُ أَنَّ شَيْئًا ما أَوْ شَخْصًا ما خَلْفي .

لَمْ أُفَكِّرْ كَثيرًا في شَيْطانِ ٱلبَحْرِ أَثْناءَ ٱللَّيْلِ ، وَلَمْ أَشْعُرْ بِٱلخَوْفِ عِنْدَ ٱلتَّفْكيرِ فيهِ ، أَمّا لوزون فَقَدْ كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يُغَيِّرَ شَكْلَهُ وَيُصْبِحَ رَجُلًا يَذْهَبُ إلى ٱلمَدينَةِ أَوْ إلى أَيِّ مَكانٍ . كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ أَصْدِقاءَ مِنْ سَمَكِ ٱلقِرْشِ وَغَيْرِهِ مِنَ ٱلأَسْماكِ تَحْكي لَهُ كُلَّ شَيْءٍ تَراهُ . إذا كانَ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ فَهوَ يَسْتَطيعُ أَنْ يُدْرِكَ أَنَّني أُحْضِرُ مَعي ٱللُّؤْلُؤَةَ كَيْ أُعيدَها إلى كَهْفِهِ . وَلٰكِنَّني كُنْتُ أَتَطَلَّعُ أَحْيانًا حَوْلي وَأَنا أُجَذِّفُ في ٱللَّيْلِ بَحْثًا عَنْ هٰذا ٱلكائِنِ ٱلعِمْلاقِ ، وَأَسْأَلُ نَفْسي وَقَدِ ٱرْتَسَمَتْ عَلى وَجْهي نِصْفُ ٱبْتِسامَةٍ : « هَلْ أُومِنُ بِهٰذا أَمْ لا ؟ »

سَمِعْتُ ٱلصَّوْتَ خَلْفي مِنْ جَديدٍ وَسْطَ ٱلضَّبابِ ، ثُمَّ تَبَيَّنْتُ صَوْتًا أَعْرِفُهُ جَيِّدًا . قالَ : « صَباحَ ٱلخَيْرِ يا رامون . إِنَّكَ تُجَذِّفُ بِبُطْءٍ . لَقَدْ تَبِعْتُكَ مِنْ لاباز ، وَنِمْتُ مُعْظَمَ ٱللَّيْلِ وَأَنا أَنْتَظِرُكَ . هَلِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ثَقيلَةٌ جِدًّا ؟ »

قُلْتُ : « أَيَّةُ لُؤْلُؤَةٍ ؟ »

ضَحِكَ ٱلإِشْبيليُّ قائِلًا : « أَعْني بِطَبيعةِ ٱلحالِ ٱللُّؤْلُؤةَ ٱلعَظيمةَ . أَنا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَرَقْتَها . لَقَدْ وَقَفْتُ عِنْدَ بابِ ٱلمُتْحَفِ وَرَأَيْتُكَ تَسْرِقُها ، ثُمَّ تَبَيَّنْتُ شَكْلَها في جَيْبِكَ عِنْدَما غادَرْتَ ٱلمُتْحَفَ . وَلَعَلَّكَ تَسْأَلُني : لِماذا كُنْتَ تُراقِبُني ؟ لَقَدْ راقَبْتُكَ لِأَنَّني ذَهَبْتُ لِأَسْرِقَ ٱللُّؤْلُؤةَ ، أَيُدْهِشُكَ هٰذا ؟ »

قُلْتُ : « كَلّا ، لا يُدْهِشُني . »

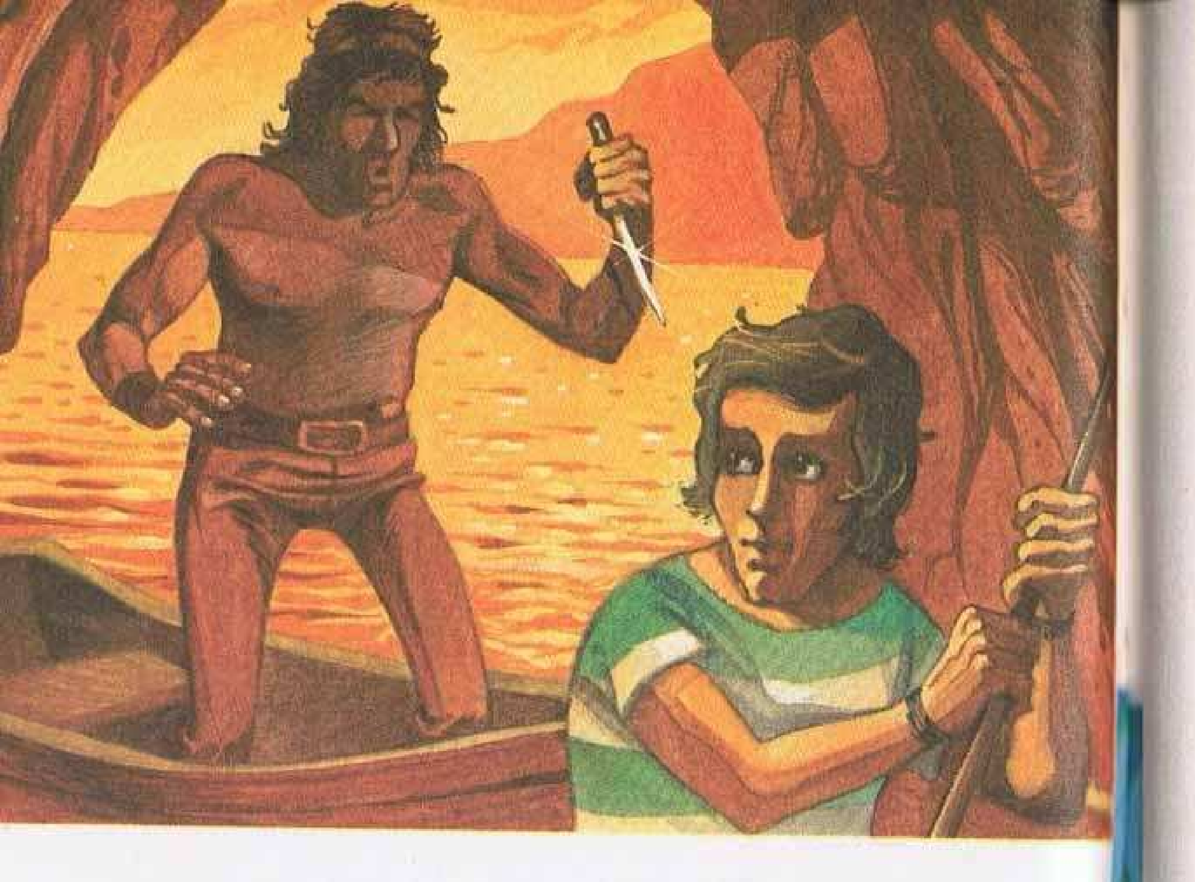
ضَحِكَ وَقالَ : « لِصّانِ ! وَٱلآنَ يَسْتَطيعُ كِلانا أَنْ يَقولَ ٱلحَقيقةَ . هَلِ ٱللُّؤْلُؤةُ مَعَكَ ؟ »

لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُ لِكَثافةِ ٱلضَّبابِ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ تَحْديدَ مَكانِ قارِبِهِ .

سَأَلَني : « إذا لَمْ تَكُنْ مَعَكَ ٱللُّؤْلُؤةُ ، أَخْبِرْني : هَلْ هٰذا هُوَ ٱلمَكانُ ٱلَّذي وَجَدْتَها فيهِ ؟ أَجِبْ عَنِ ٱلسُّؤالَيْنِ وَقُلِ ٱلحَقَّ . »

اِنْقَشَعَ ٱلضَّبابُ قَليلًا وَتَبَيَّنْتُ أَيْنَ كُنّا . كانَ ٱلإِشْبيليُّ بَيْني وَبَيْنَ كَهْفِ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ . كانَ أَقْرَبَ بِكَثيرٍ مِمّا كُنْتُ أَتَصَوَّرُ ، وَكانَ مُمْسِكًا بِسِكّينٍ في يَدِهِ . تَبادَلْنا ٱلنَّظَراتِ ، وَأَدْرَكْتُ مِنْ مَلامِحِ وَجْهِهِ أَنَّهُ يَنْوي اسْتِخْدامَهُ لَوْ لَزِمَ ٱلأَمْرُ ، فَجَلَسْتُ وَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا .

قالَ : « لا أَعْتَقِدُ أَنَّكَ أَخْطَأْتَ بِسَرِقةِ ٱللُّؤْلُؤةِ ٱلعَظيمةِ ، إِذْ لَيْسَ لَها فائِدةٌ هُناكَ . وَلَوْ كُنْتَ قَدْ أَعْطَيْتَها لِلشَّيْطانِ لَما كانَ هُناكَ فَرْقٌ ، وَأَنْتَ بِٱلطَّبْعِ تُريدُ أَنْ تَحْتَفِظَ بِسِرِّ ٱلمَكانِ ٱلَّذي وَجَدْتَها فيهِ . هَيّا أَعْطِني ٱللُّؤْلُؤةَ ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ سَوْفَ نَتَحَدَّثُ عَنْ أَشْياءَ أُخْرى . »



أَبْعَدَ ٱلسِّكّينَ ، وَحَرَّكَ قارِبَهُ حَتّى لَمَسَ قارِبي ، وَمَدَّ يَدَهُ كَيْ يَأْخُذَ ٱللُّؤْلُؤةَ . كانَ ٱلكَهْفُ مُظْلِمًا وَلَمْ يَكُنْ بَعيدًا ، فَقَدْ رَأَيْتُهُ بِوُضوحٍ . وَأَخْرَجْتُ ٱللُّؤْلُؤةَ مِنْ قَميصي كَما لَوْ كُنْتُ أَعْتَزِمُ إِعْطاءَها لَهُ ، وَلٰكِنْ عِنْدَما مَدَّ يَدَهُ لِيَأْخُذَها قَذَفْتُ بِها في ٱلهَواءِ لِتَسْقُطَ خَلْفَهُ في ٱلماءِ ، أَيْ عِنْدَ مَدْخَلِ ٱلكَهْفِ .

كانَ مِنَ ٱلسُّخْفِ أَنْ أَفْعَلَ هٰذا ، فَبِمُجَرَّدِ أَنْ قَذَفْتُ ٱللُّؤْلُؤةَ ، كانَ ٱلإِشْبيليُّ في ٱلبَحْرِ يَسْبَحُ تَحْتَ ٱلماءِ . وَأَمْسَكْتُ بِٱلمِجْذافَيْنِ وَأَدَرْتُ ٱلقارِبَ بَعيدًا . فَقَدْ قَصَدْتُ أَنْ أُجَذِّفَ حَتّى أَصِلَ إِلى نِهايةِ ٱلبُحَيْرةِ وَأَطْلُبَ ٱلعَوْنَ مِنْ

لُوزُون . وَلٰكِنْ قَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ ذٰلِكَ طَفا ٱلإِشْبيلِيُّ فَوْقَ ٱلماءِ ، وَأَمْسَكَ بِأَحَدِ ٱلمِجْذافَيْنِ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ عَلى حافَةِ ٱلقارِبِ . كانَتِ ٱللُّؤْلُؤَةُ ٱلسَّوْداءُ ٱلكَبيرَةُ في يَدِهِ .

قالَ : « لَقَدْ أَلْقَيْتُها لِلشَّيْطانِ . » ثُمَّ صَعِدَ إِلى ٱلقارِبِ قائِلًا : « وَٱلآنَ لِنَبْحَثْ عَنْ قارِبي . »

كانَ قارِبُهُ قَدْ تَحَرَّكَ بَعيدًا . كانَ أَصْغَرَ مِنْ قارِبي ، وَعِنْدَما وَصَلْنا إِلَيْهِ وَجَدْتُهُ مَمْلُوءًا بِٱلطَّعامِ وَآنِيَةِ ٱلمِياهِ وَأَدَواتِ ٱلصَّيْدِ وَحَرْبَةٍ يَسْتَخْدِمُها في مُواجَهَةِ ٱلأَسْماكِ ٱلضَّخْمَةِ .

قَفَزَ إِلى قارِبِهِ قائِلًا : « هَيَّا ! » وَلَمْ أَتَحَرَّكْ ، فَصاحَ مَرَّةً أُخْرى : « هَيَّا ! أَمامَنا طَريقٌ طَويلٌ . »

قُلْتُ لَهُ : « سَأُجَذِّفُ حَتَّى ٱلشَّاطِئِ . إِنَّ لَدَيَّ عَمَلًا مَعَ سُوتُو لُوزُون . »

أَخْرَجَ ٱلإِشْبيلِيُّ سِكِّينَهُ ، فَنَظَرْتُ إِلى ٱلشَّاطِئِ ٱلبَعيدِ : كُنْتُ آمُلُ أَنْ يَكونَ لُوزُون قَدْ سَمِعَ حَديثَنا وَجاءَ لِيَرى مَنْ نَكونُ ، وَلٰكِنْ كانَ ٱلضَّبابُ ٱلأَحْمَرُ ما زالَ يَحْجُبُ ٱلشَّاطِئَ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَتَهُ .

قالَ ٱلإِشْبيلِيُّ وَهوَ يُمْسِكُ سِكِّينَهُ اسْتِعْدادًا لِطَعْني : « هَيَّا ! »

اُضْطُرِرْتُ إِلى أَنْ أُطيعَهُ ، وَانْتَقَلْتُ إِلى قارِبِهِ وَجَلَسْتُ فيهِ مُمْسِكًا بِٱلمِجْذافَيْنِ ، أَمَّا هُوَ فَقَدْ خَلَعَ قَميصَهُ وَوَضَعَ فيهِ ٱللُّؤْلُؤَةَ ، وَأَمَرَني أَنْ أُجَذِّفَ .

بَدَأَ ٱلضَّبابُ يَرْتَفِعُ فَوْقَ ٱلماءِ ، فَأَلْقَيْتُ نَظْرَةً أَخيرَةً عَلى ٱلشَّاطِئِ ، لٰكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَحَدٌ . وَشَعَرْتُ بِطَرَفِ ٱلسِّكِّينِ يَنْغَرِزُ في ظَهْري ، فَٱلْتَقَطْتُ ٱلمِجْذافَيْنِ وَبَدَأْتُ أُجَذِّفُ . أَمَرَني بِٱلتَّجْذيفِ نَحْوَ ٱلبَحْرِ لِنَذْهَبَ إِلى مَدينَةِ غوايْماس ، وَعِنْدَما سَأَلْتُهُ قالَ : « سَنَبيعُ ٱللُّؤْلُؤَةَ ٱلعَظيمَةَ ، وَسَتَجيءُ مَعي ، لِأَنَّ اسْمَ سالازار مَعْروفٌ لَدى تُجَّارِ ٱللُّؤْلُؤِ هُناكَ ، وَبِهٰذا سَنَبيعُها بِعَشَرَةِ أَضْعافِ ما كُنْتُ سَأَحْصُلُ عَلَيْهِ لَوْ بِعْتُها وَحْدي . »

سَمِعْتُهُ يَتَناوَلُ مِجْذافَيْهِ وَيُلْقي بِهِما في ٱلماءِ ، فَقُلْتُ في نَفْسي : « ٱلآنَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَقْفِزَ إِلى ٱلماءِ وَأَسْبَحَ إِلى أَقْرَبِ مَكانٍ مِنَ ٱلشَّاطِئِ .

وَيَبْدو أَنَّهُ عَرَفَ ما يَدورُ في رَأْسي ، لِأَنِّي أَحْسَسْتُ بِٱلسِّكِّينِ يَنْغَرِزُ في ظَهْري .

قالَ : « أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُجَذِّفَ وَأُراقِبَكَ في نَفْسِ ٱلوَقْتِ . لِذا يَجِبُ أَنْ تُجَذِّفَ بِقُوَّةٍ تَكْفي لِتَحْريكِ ٱلقارِبِ بِنا نَحْنُ الاثْنَيْنِ . »

جَذَبْتُ ٱلمِجْذافَيْنِ وَأَنا أُفَكِّرُ فيما يُمْكِنُني أَنْ أَفْعَلَهُ . وَوَجَدْتُ أَنَّهُ مِنَ ٱلحِكْمَةِ أَنْ أَفْعَلَ ما يَطْلُبُهُ مِنِّي ، فَقَدْ كانَ سِكِّينُهُ في ظَهْري ، لِذا واصَلْتُ ٱلتَّجْذيفَ . وَعِنْدَما خَرَجْنا إِلى عُرْضِ ٱلبَحْرِ بَعيدًا عَنِ ٱلبُحَيْرَةِ ، أَصْبَحَ مِنَ ٱلصَّعْبِ عَلَيَّ ٱلسِّباحَةُ إِلى ٱلشَّاطِئِ . وَأَدارَ ٱلإِشْبيلِيُّ ٱلقارِبَ نَحْوَ ٱلشَّرْقِ وَبَسَطَ شِراعًا .

الفَصْلُ ٱلخامِسَ عَشَرَ

شَيْطانُ ٱلبَحْرِ يَتْبَعُنا

هَبَّتْ رياحٌ قَوِيَّةٌ مِنَ ٱلجنوبِ ، وَكُنّا قَدْ قَطَعْنا مَسافَةً لا بَأْسَ بِها ذٰلِكَ ٱلصَّباحَ . وَفي ٱلظُّهْرِ تَناوَلْنا قليلًا مِنْ كَعْكِ ٱلذُّرةِ ٱلَّذي كانَ ٱلإشْبيليُّ قَدْ أَحْضَرَهُ ، ثُمَّ اسْتَسْلَمْتُ لِلنَّوْمِ .

اِسْتَيْقَظْتُ في ٱلمَساءِ وَسَأَلْتُ ٱلإشْبيليَّ : « هَلْ تَرْغَبُ في ٱلنَّوْمِ قليلًا وَأُواصِلُ أَنا ٱلتَّجْذيفَ ؟ »

أجابَ : « كَلّا ، أَنا لا أَثِقُ بِكَ ، فَرُبَّما لا أَسْتَيْقِظُ عَلى ٱلإطْلاقِ ، وإذا ٱسْتَيْقَظْتُ فَقَدْ أَجِدُكَ أَدَرْتَ ٱلقارِبَ لِنُبْحِرَ عائِدَيْنِ إلى لاباز . » وَلٰكِنَّهُ نامَ فِعْلًا ، وَقَدْ فَتَحَ إحْدى عَيْنَيْهِ واضِعًا يَدَهُ على ٱلسِّكّينِ .

خَفَّتْ شِدَّةُ ٱلرِّياحِ ، وَعِنْدَما بَزَغَ ٱلقَمَرُ رَأَيْتُ حَرَكَةً في ٱلبَحْرِ على بُعْدِ



رُبعِ مِيلٍ خَلفَنا . لَمْ تَكُنْ مَوْجةً ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ مَوْجةً لِأَنَّ ٱلبَحْرَ كانَ هادِئًا تَمامًا . كانَ حَوْلَنا عَدَدٌ كَبيرٌ مِنْ أَسْماكِ ٱلقِرْشِ ، لِذا ٱعْتَقَدْتُ أَوَّلَ ٱلأَمْرِ أَنَّها تَلْتَهِمُ بَعْضَ ٱلأَسْماكِ هُناكَ . بَعْدَ ذٰلِكَ شاهَدْتُ ٱلحَرَكَةَ نَفْسَها مِنْ جَديدٍ ، وَفي هٰذِهِ ٱلمَرَّةِ سَقَطَ ضَوْءُ ٱلقَمَرِ عَلى ما يُشْبِهُ جَناحَي شَيْطانِ ٱلبَحْرِ وَهُما يَرْتَفِعانِ وَيَنْخَفِضانِ . كانَ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ فِعْلًا .

كُنّا قَدْ شاهَدْنا عَدَدًا مِنْ أَسْماكِ ٱلقِرْشِ في ذٰلِكَ ٱليَوْمِ طافيةً عَلى سَطْحِ ٱلماءِ تَسْتَمْتِعُ بِدِفْءِ ٱلشَّمْسِ ، لِذٰلِكَ لَمْ أَنْزَعِجْ عِنْدَما رَأَيْتُ إِحْداها تَسْبَحُ خَلْفَنا وَٱسْتَسْلَمْتُ لِلنَّوْمِ .

عِنْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ سَمِعْتُ أَصْواتًا خافِتَةً آتيةً مِنْ مَكانٍ قَريبٍ . هَلْ كُنْتُ أَحْلُمُ ؟ كَلّا ! كانَتْ أَصْواتًا حَقيقيَّةً ! فَقَدْ بَدا واضِحًا في ضَوْءِ ٱلقَمَرِ أَنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ ٱلعِمْلاقَ يَسْبَحُ عَلى بُعْدِ ثَلاثِينَ مِتْرًا فَقَطْ خَلْفَنا .

قُلْتُ لِلإِشْبيلِيِّ : « أُنْظُرْ ! هُناكَ شَيْءٌ يَسْبَحُ خَلْفَنا . »

قالَ : « نَعَمْ ، لَيْتَهُ يَسْبَحُ أَمامَنا حَتّى أَرْبُطَ فيهِ حَبْلًا وَنَصِلَ بِسُرْعَةٍ إِلى مَدينةِ غوايْماس . »

وَضَحِكَ عَلى هٰذِهِ ٱلصُّورةِ ٱلَّتي رَسَمَها في خَيالِهِ ، أَمّا أَنا فَجَلَسْتُ ساكِنًا أَنْظُرُ إِلى شَيْطانِ ٱلبَحْرِ وَهُوَ يَسْبَحُ خَلْفَنا عَنْ قُرْبٍ . إِنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ ٱلَّذي رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلُ أَوَّلَ ٱللَّيْلِ . كُنْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ ذٰلِكَ . إِنَّهُ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ .

قالَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « لَقَدْ شَمَّ رائِحةَ كَعْكِ ٱلذُّرةِ . »

طَلَعَ ٱلنَّهارُ ، وَظَلَّ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ يَسْبَحُ خَلْفَنا . لَمْ يَقْتَرِبْ عَمّا كانَ مِنْ قَبْلُ فَلَمْ يَسْبَحْ أَسْرَعَ وَلا أَبْطَأَ مِنَ ٱلقارِبِ ، وَحافَظَ عَلى ٱلمَسافةِ ٱلَّتي بَيْنَنا وَبَيْنَهُ .

سَأَلْتُ ٱلإِشْبيلِيَّ : « هَلْ تَتَذَكَّرُ أَوَّلَ يَوْمٍ كُنْتُ أَنا فيهِ عَلى ٱلسَّفينةِ وَصِحْتَ أَنْتَ : (شَيْطانُ ٱلبَحْرِ) وَخافَ ٱلهِنْدِيُّ ؟ لَيْتَهُ كانَ مَعَنا حَتّى يَرى ٱلشَّيْطانَ ٱلعِمْلاقَ . »

أَجابَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « لَقَدْ شاهَدْتُ كَثيرًا مِنْ هٰذا ٱلسَّمَكِ ، وَلٰكِنَّ هٰذا ٱلشَّيْطانَ هُوَ أَكْبَرُهُمْ عَلى ٱلإِطْلاقِ . لا بُدَّ أَنَّهُ يَبْلُغُ سَبْعةَ أَمْتارٍ عَلى ٱمْتِدادِ جَناحَيْهِ ، وَيَزِنُ طُنَّيْنِ تَقْريبًا (أَلْفَيْ كيلو غِرامٍ) وَلٰكِنَّ هٰذِهِ ٱلأَسْماكَ ٱلضَّخْمةَ أَسْماكٌ صَديقةٌ . لَقَدْ شاهَدْتُها تَتْبَعُ قارِبي طَوالَ يَوْمٍ كامِلٍ ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَقْصِدْ أَيَّ ضَرَرٍ . إِنَّها بِٱلطَّبْعِ تَسْتَطيعُ أَنْ تَقْتُلَكَ بِسُهولةٍ ، وَأَنْ تُحَطِّمَ قارِبَكَ بِلَمْسةٍ بَسيطةٍ إِنْ هِيَ أَرادَتْ ، وَلٰكِنَّها لا تُريدُ . »

مَرَّتْ ساعةٌ سَبَحَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ بَعْدَها أَمامَنا وَعِنْدَما مَرَّ بِٱلقارِبِ شاهَدْتُ عَيْنَيْهِ ٱلصَّفْراوَيْنِ . وَبَدَتا كَأَنَّهُما مُثَبَّتَتَيْنِ عَلَيَّ ، عَلَيَّ وَحْدي ، وَلَيْسَ عَلى ٱلإِشْبيلِيِّ . رَأَيْتُ أَيْضًا فَمَهُ ، وَتَذَكَّرْتُ كَلِماتِ أُمّي عِنْدَما كُنْتُ طِفْلًا : « إِنَّ لَهُ سَبْعةَ صُفوفٍ مِنَ ٱلأَسْنانِ . » لَقَدْ كانَتْ مُخْطِئةً . لَيْسَتْ لَدَيْهِ أَيَّةُ أَسْنانٍ في فَكِّهِ ٱلعُلْوِيِّ ، وَإِنَّما لَدَيْهِ مَجْموعةٌ واحِدةٌ مِنَ ٱلأَسْنانِ في فَكِّهِ ٱلسُّفْلِيِّ ، وَلَمْ تَكُنْ كَالسَّكاكينِ ، وَلَمْ تَكُنْ شَديدةَ ٱلبَياضِ .

ٱسْتَدارَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ وَعادَ سابِحًا في دائِرةٍ كَبيرةٍ حَوْلَنا ، ثُمَّ ٱبْتَعَدَ عَنّا

وَعادَ مِنْ جديدٍ ، وَلٰكِنْ هٰذِهِ ٱلمَرَّةَ كانَتْ دائِرَتُهُ أَصْغَرَ وَقَذَفَتِ ٱلأَمْواجُ ٱلَّتي أَثارَها بِقارِبِنا إلى أَعْلى وَإلى أَسْفَلَ .

قالَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « لَقَدْ بَدَأَتْ أَضيقُ بِصَديقِنا ، وَإِذا اقْتَرَبَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، سَأَسْتَخْدِمُ ٱلرُّمْحَ . »

قُلْتُ في نَفْسي : « مِنَ ٱلأَفْضَلِ لَكَ أَلَّا تُغْضِبَهُ . إِنَّ ٱلرُّمْحَ سَيَكونُ كَوَخْزَةِ دَبّوسٍ . إِنَّهُ لَيْسَ مُجَرَّدَ سَمَكَةٍ . إِنَّهُ شَيْطانُ ٱلسَّمَكِ . »

فَكَّرْتُ في ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَمْ أَتَكَلَّمْ ، فَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ . وَكانَتْ عَيْناهُ ٱلصَّفْراوانِ مُثَبَّتَتَيْنِ عَلَيَّ .

صَغُرَتِ ٱلدَّوائِرُ ، وَنَحْنُ في وَسَطِها ، نَحْنُ وَٱللُّؤْلُؤَةُ ، وَيَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أَقولَ أَنا وَٱللُّؤْلُؤَةُ . قُذِفَ بِٱلقارِبِ إلى أَعْلى وَإلى أَسْفَلَ ، وَمِنْ جانِبٍ إلى جانِبٍ . وَكُنّا نَنْزَحُ ٱلماءَ مِنَ ٱلقارِبِ بِقُبَّعَتَيْنا لِنَحولَ دونَ أَنْ يَغْرَقَ . وَعَلى بُعْدِ نِصْفِ ميلٍ مِنّا كانَتْ هُناكَ جَزيرَةٌ تُسَمّى جَزيرَةَ ٱلمَوْتى . وَلَقَدْ سُمِّيَتْ بِهٰذا ٱلاسْمِ لِأَنَّ بَعْضَ ٱلهُنودِ كانوا يُقيمونَ عَلَيْها ، وَكانوا يَقْتُلونَ أَيَّ شَخْصٍ يَنْزِلُ بِها .

قالَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « سَنَذْهَبُ إلى ٱلجَزيرَةِ . »

قُلْتُ : « نَعَمْ ، هٰذِهِ هِيَ فُرْصَتُنا ٱلأَفْضَلُ . »

بَدا شَيْطانُ ٱلبَحْرِ وَكَأَنَّهُ يَفْهَمُ ما كُنّا نُخَطِّطُ لَهُ ، فَسَبَحَ بَعيدًا ثُمَّ ٱخْتَفى عَنِ ٱلأَنْظارِ . وَهٰكَذا وَصَلْنا إلى ٱلجَزيرَةِ بِسَلامٍ .

الفَصْلُ ٱلسّادِسَ عَشَرَ

جَزيرَةُ ٱلمَوْتى

كانَتْ جَزيرَةُ ٱلمَوْتى ، مِثْلَ سائِرِ جُزُرِ بَحْرِ فيرْمِلْيون بِها خَليجٌ رَمْلِيٌّ أَدْخَلْنا ٱلقارِبَ فيهِ وَشَدَدْناهُ إلى ٱلشّاطِئِ ، وَصَعِدْنا تَلًّا صَغيرًا ، وَأَلْقَيْنا نَظْرَةً عَلى ٱلجَزيرَةِ مِنْ فَوْقِهِ .

كانَتْ جَزيرَةً صَغيرَةً خالِيَةً مِنَ ٱلتِّلالِ ٱلكَبيرَةِ ، وَكانَ ٱلهُنودُ يَعيشونَ فَوْقَها في ٱلخَلاءِ بِلا أَكْواخٍ . وَرَأَيْنا نيرانَهُمُ ٱلمُشْتَعِلَةَ في أَقْصى ٱلجَنوبِ وَقَدِ ٱلْتَفّوا حَوْلَها ، وَاصْطَفَّتْ زَوارِقُهُمْ عَلى ٱلشّاطِئِ .

لَمْ يَرَنا أَحَدٌ وَنَحْنُ نُبْحِرُ داخِلَ ٱلخَليجِ . وَقَلَبْنا ٱلقارِبَ كَيْ نُفْرِغَهُ مِنَ ٱلمِياهِ ، ثُمَّ تَناوَلْنا مَزيدًا مِنْ كَعْكِ ٱلذُّرَةِ ، وَحَلَّ ٱلظَّلامُ .

قالَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « سَوْفَ نَنْتَظِرُ ساعَةً وَهٰذا يُعْطي شَيْطانَ ٱلبَحْرِ فُرْصَةً لِيَجِدَ زَوْرَقًا آخَرَ يَتْبَعُهُ . »

قُلْتُ : « تَسْتَطيعُ أَنْ تَبْقى ساعَةً أَوْ يَوْمًا ، وَلٰكِنَّهُ سَيَظَلُّ هُناكَ . »

سَأَلَني : « ماذا تَعْني ؟ »

أَجَبْتُ : « أَعْني أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ هُناكَ هُوَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ . »

ضَحِكَ وَقالَ : « أَنا أَعْرِفُ أَنَّ ٱلهُنودَ ٱلبُلَهاءَ يَعْتَقِدونَ في شَيْطانِ ٱلبَحْرِ .

وَلٰكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ فِي ٱلْمَدْرَسةِ وَتَسْتَطيعُ قِراءةَ ٱلْكُتُبِ . أَنْتَ أَحَدُ أَفْرادِ أُسْرةِ سالآزار ٱلقَوِيَّةِ . يُدْهِشُني أَنَّكَ تُصَدِّقُ تِلْكَ ٱلقِصَّةَ ٱلخُرافيَّةَ . »

قُلْتُ : « إِنِّي أُومِنُ تَمامًا أَنَّهُ شَيْطانُ ٱلْبَحْرِ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَنْتَظِرُ فِي ٱلْبَحْرِ مِنْ أَجْلِ ٱللُّؤْلُؤةِ ، وَسَوْفَ يَظَلُّ مُنْتَظِرًا حَتَّى يَحْصُلَ عَلَيْها . »

وَقَفَ وَنَظَرَ إِلَيَّ بِازْدِراءٍ حَيْثُ أَجْلِسُ ، وَقالَ : « لَوْ أَنا قَذَفْتُ بِٱللُّؤْلُؤةِ إِلى ٱلْبَحْرِ لَأَخَذَها ٱلشَّيْطانُ وَسَبَحَ بَعيدًا ، وَتَرَكَنا لِحالِنا . هَلْ هٰذا ما تَعْتَقِدُهُ ؟ »

قُلْتُ : « نَعَمْ . »

أَدارَ ظَهْرَهُ لي وَسارَ في ٱلظَّلامِ كَأَنَّهُ يُريدُ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِّي إِلى أَقْصَى ما يَسْتَطيعُ

بَزَغَ ٱلقَمَرُ . وَسَمِعْتُ في ٱلتَّوِّ صَوْتَ ٱلطُّيورِ تُحَلِّقُ في ٱلهَواءِ : لَقَدْ أَخافَها شَيْءٌ ما .

نَظَرْتُ إِلى أَعْلَى فَشاهَدْتُ رَجُلًا يَقِفُ عَلَى ٱلتَّلِّ وَمِنْ خَلْفِهِ ٱلسَّماءُ . قَفَزْتُ مِنْ مَكاني ، وَلَمْ أُنادِ ٱلإِشْبيليَّ وَقُلْتُ في نَفْسي : « هٰذِهِ فُرْصَةٌ لِلْهُروبِ . سَأَتَسَلَّقُ ٱلتَّلَّ وَأُخْبِرُ هٰذا ٱلهِنْديَّ بِسَبَبِ مَجيئي إِلى ٱلجَزيرةِ وَأَطْلُبُ مَعونَتَهُ . سَوْفَ يَفْهَمُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ . »

كانَتْ خُطَّةً مَليئةً بِٱلأَخْطارِ وَقَدْ تَنْجَحُ . لٰكِنَّ ٱلإِشْبيليَّ رَأَى هُوَ أَيْضًا ٱلهِنْديَّ فَصاحَ : « هَيَّا ، لِنَرْحَلْ . »



جاءَ هُنودٌ آخَرونَ وَانْضَمُّوا إِلى ٱلرَّجُلِ ٱلأَوَّلِ ، فَجَرَى ٱلإِشْبيليُّ إِلى ٱلقارِبِ وَعَدَلَهُ ، وَٱلْتَقَطَ كُلَّ أَمْتِعَتِنا مِنْ فَوْقِ ٱلرِّمالِ وَوَضَعَها فيهِ ثُمَّ صاحَ بِيَ : « أَسْرِعْ ! »

مَشَيْتُ إِلى ٱلقارِبِ وَعاوَنْتُهُ في دَفْعِهِ إِلى ٱلمِياهِ . لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ مَكانَ ٱللُّؤْلُؤةِ وَتَساءَلْتُ في نَفْسي : « هَلْ هِيَ في ٱلقارِبِ ، أَمْ في جَيْبِهِ ؟ »

سَأَلَني : « لَعَلَّكَ تُفَضِّلُ ٱلبَقاءَ ؟ ٱلهُنودُ هُنا يَحْفِرونَ حُفْرةً في ٱلرِّمالِ وَيَضَعونَ فيها أَيَّ أَسيرٍ بِحَيْثُ لا يَظْهَرُ مِنْهُ إِلَّا رَأْسُهُ فَقَطْ ، ثُمَّ يَتْرُكونَ

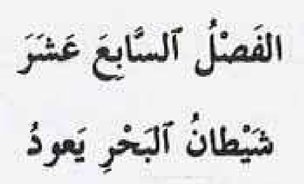
ٱلحَيَواناتِ تَنْهَشُ وَجْهَهُ . لٰكِنْ رُبَّما تُفَضِّلُ ذٰلِكَ عَلى شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ؟ »

كانَ ٱلقارِبُ في ٱلماءِ فَٱلْتَقَطَ ٱلإِشْبيليُّ ٱلمِجْذافَيْنِ قائِلًا : « حَسَنًا ، أَتَذْهَبُ أَمْ تَبْقى ؟ »

كانَ ٱلهُنودُ يَهْبِطونَ مِنْ فَوْقِ ٱلتَّلِّ وَهُمْ يَصيحونَ بِغَضَبٍ ، فَنَزَلْتُ إِلى ٱلقارِبِ .

كانَ ٱلقَمَرُ بَدْرًا ، وَكانَ ٱلهَواءُ صافِيًا وَٱلبَحْرُ كَٱلفِضَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيُّ أَثَرٍ لِشَيْطانِ ٱلبَحْرِ . جَذَّفْنا مَعًا بِقُوَّةٍ خَشْيَةَ أَنْ يُسْرِعَ ٱلهُنودُ إِلى قَوارِبِهِمْ وَيَتْبَعُونا . وَظَلَلْنا نَسْمَعُ صِياحَهُمْ لِفَتْرَةٍ طَويلَةٍ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَمْ يُحاوِلوا أَنْ يَتْبَعونا .

عِنْدَما ابْتَعَدْنا عَنِ ٱلجَزيرَةِ ، اشْتَدَّتِ ٱلرِّياحُ فَرَفَعَ ٱلإِشْبيليُّ ٱلشِّراعَ ، وَأَبْحَرْنا في اتِّجاهِ ٱلشَّرْقِ .



الفَصْلُ ٱلسّابِعَ عَشَرَ

شَيْطانُ ٱلبَحْرِ يَعودُ

عِنْدَما أَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ كُنّا قَدِ ٱبْتَعَدْنا عَنْ جَزيرَةِ ٱلمَوْتى . كانَ ٱلهَواءُ

ساكنًا وَٱلبَحْرُ هادِئًا ، وَخَيَّمَتْ طَبَقَةٌ رَقيقَةٌ مِنَ ٱلضَّبابِ ٱلأَحْمَرِ فَوْقَنا ، وَلٰكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ رُؤْيَةَ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ .

مَرَّتْ ساعَةٌ ، ثُمَّ ٱرْتَفَعَتِ ٱلمِياهُ عَلى بُعْدِ مِئَةِ مِتْرٍ خَلْفَنا عَلى هَيْئَةِ تَلٍّ ، وَمِنْ وَسَطِ هٰذا ٱلتَّلِّ بَرَزَ ٱلشَّيْطانُ .

قَفَزَ عالِيًا في ٱلهَواءِ أَعْلى مِنْ أَيِّ شَيْطانِ بَحْرٍ رَأَيْتُهُ يَقْفِزُ مِنْ قَبْلُ . ٱرْتَفَعَ لِدَرَجَةِ أَنَّني رَأَيْتُ بَطْنَهُ ٱلأَبْيَضَ وَذَيْلَهُ ٱلطَّويلَ . وَٱسْتَمَرَّ هٰكَذا لَحْظَةً ثُمَّ هَبَطَ وَٱرْتَطَمَ بِٱلماءِ مُحْدِثًا دَوِيًّا مُرْعِبًا .

قالَ ٱلإِشْبيلِيُّ : « إِنَّ صَديقَكَ يُرينا فُتُوَّتَهُ . »

تَعَجَّبْتُ كَيْفَ أَنَّهُ حَتَّى ٱلآنَ لا يَعْرِفُ أَنَّ هٰذا هُوَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ .

وَضَعَ ٱلإِشْبيلِيُّ ٱللُّؤْلُؤَةَ في مَكانٍ أَمينٍ بِمُؤَخَّرِ ٱلقارِبِ ، ثُمَّ ٱلْتَقَطَ ٱلرُّمْحَ قائِلًا : « لَقَدْ قَتَلْتُ تِسْعَةً مِنْهُ . إِنَّ قَتْلَهُ لَيْسَ صَعْبًا ، إِذْ لَيْسَ لَدَيْهِ غِطاءٌ سَميكٌ مِنَ ٱلشَّحْمِ . إِنَّ قَتْلَهُ أَسْهَلُ مِنْ قَتْلِ أَضْخَمِ أَسْماكِ ٱلقِرْشِ – ٱلقِرْشِ ٱلأَشْهَبِ ٱلضَّخْمِ . »

غاصَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ في ٱلماءِ وَغابَ عَنِ ٱلأَنْظارِ حَتَّى مُنْتَصَفِ ٱلنَّهارِ ، لَعَلَّهُ كانَ يَسْبَحُ عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ خَلْفَنا ، بَيْنَما كانَ ٱلإِشْبيلِيُّ يَحْكي لي كَيْفَ أَنَّ قَتْلَهُ أَمْرٌ سَهْلٌ وَأَنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً .

رَأَيْتُ جَناحَيْهِ أَوَّلًا ، وَعِنْدَما مَرَّ بِٱلقارِبِ ، رَأَيْتُ عَيْنَيْهِ ٱلصَّفْراوَيْنِ

تَدورانِ وَتَنْظُرانِ إِلَيَّ كَما فَعَلَتا مِنْ قَبْلُ . وَبَدَتا وَكَأَنَّهُما تَقولانِ : « ٱللُّؤْلُؤَةُ مِلْكي ، اقْذِفْ بِها إِلى ٱلبَحْرِ . إِنَّها لَمْ تَجْلُبْ لَكَ سِوى ٱلمَتاعِبِ ، وَلَنْ تَنْعَمَ بِسَعادَةٍ أَوْ راحَةٍ حَتَّى تُعيدَها . »

بَدا عَلى ٱلإِشْبيلِيِّ أَنَّهُ يَقْرَأُ أَفْكاري ، فَضَحِكَ . لَقَدْ أَيْقَنَ في تِلْكَ ٱللَّحْظَةِ أَنَّني لَسْتُ سِوى طِفْلٍ أَبْلَهَ – أَوْ رَجُلٍ فَقَدَ عَقْلَهُ .

سَبَحَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ أَبْعَدَ مِنْ مَدى ٱلرُّمْحِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلى ٱلأَمامِ ثُمَّ عادَ بِبُطْءٍ في دائِرَةٍ واسِعَةٍ . ٱنْتَظَرَهُ ٱلإِشْبيلِيُّ وَفي يَدِهِ ٱلرُّمْحُ ٱلثَّقيلُ . كانَ عَلَيَّ أَنْ أَحْبُوَ عَلى يَدَيَّ وَرُكْبَتَيَّ طولَ ٱلقارِبِ حَتَّى أَصِلَ إِلى ٱللُّؤْلُؤَةِ ، وَسَيَرى ٱلإِشْبيلِيُّ تَحَرُّكي ؛ لِذا قَرَّرْتُ أَنْ أَنْتَظِرَ حَتَّى يَقْتَرِبَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ ، وَيُرَكِّزَ ٱلإِشْبيلِيُّ عَيْنَيْهِ عَلَيْهِ .

نَظَرَ إِلَيَّ ٱلإِشْبيلِيُّ قائِلًا : « لَقَدْ بَدَأْتُ أَفْهَمُ بَعْضَ ٱلأُمورِ . لَقَدْ أَخَذْتَ ٱللُّؤْلُؤَةَ مِنَ ٱلمُتْحَفِ بَعْدَ أَنْ تَحَطَّمَتْ سُفُنُ أَبيكَ في ٱلبَحْرِ ، ثُمَّ أَبْحَرْتَ طَوالَ ٱللَّيْلِ إِلى ٱلبُحَيْرَةِ حَيْثُ وَجَدْتَ ٱللُّؤْلُؤَةَ لِتُعيدَها إِلى شَيْطانِ ٱلبَحْرِ . هَلْ هٰذا صَحيحٌ ؟ » وَلَمْ أُجِبْهُ .

قالَ : « حَسَنًا ! سَأَقولُ لَكَ شَيْئًا لا يَعْرِفُهُ سِواي . في هٰذِهِ ٱلسَّاعَةِ كانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ تَكونَ سُفُنُ أَبيكَ مُبْحِرَةً في أَمانٍ ، أَوْ راسِيَةً في ٱلخَليجِ سالِمَةً ، وَكانَ مِنَ ٱلمُمْكِنِ أَنْ يَكونَ أَبوكَ جالِسًا في بَيْتِهِ سالِمًا يَتَناوَلُ عَشاءَهُ . »

غَضِبْتُ أَشَدَّ ٱلغَضَبِ ، وَلٰكِنِّي جَلَسْتُ هادِئًا لا أَتَحَرَّكُ ، إِلَّا أَنَّهُ رَأى

ذٰلِكَ عَلى وَجْهي ، فَقالَ : « لا تَغْضَبْ . أُريدُ فَقَطْ أَنْ أُخْبِرَكَ لِماذا تَحَطَّمَتِ السُّفُنُ عَلى الصُّخورِ . لَقَدْ كانَتْ سُفُنُنا مُمْتازَةً – لا يُوجَدُ أَحْسَنُ مِنْها ، وَكانَ أَبوكَ رُبّانًا ماهِرًا . وَلَمْ تَكُنِ العاصِفَةُ أَسْوَأَ مِنْ عَواصِفَ كَثيرَةٍ سابِقَةٍ . إِذًا لِماذا حَدَثَ ما حَدَثَ ؟ أَ تَسْأَلُ لِماذا ؟ »

قُلْتُ : « أَنا لا أَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ . »

قالَ : « لٰكِنّي سَأُخْبِرُكَ لِماذا . بَيْنَما أُراقِبُ أَنا شَيْطانَ الْبَحْرِ قَدْ تَأْخُذُ أَنْتَ اللُّؤْلُؤَةَ وَتَقْذِفُ بِها إِلى الْبَحْرِ . حينَئِذٍ لا أَمْلِكُ إِلّا أَنْ أَقْتُلَكَ . لَمْ يَكُنْ شَيْطانُ الْبَحْرِ السَّبَبَ في مَوْتِ أَبيكَ . »

كانَ شَيْطانُ الْبَحْرِ لا يَزالُ بَعيدًا عَنّا ، وَلَمْ يَبْدُ أَنَّهُ في عَجَلَةٍ لِلِانْقِضاضِ عَلَيْنا . لٰكِنَّ الْإِشْبيليَّ رَبَطَ طَرَفًا واحِدًا مِنْ حَبْلِ الرُّمْحِ ، وَوَضَعَ بَقِيَّةَ الْحَبْلِ عَلى شَكْلِ دائِرَةٍ عِنْدَ قَدَمَيْهِ ، وَاسْتَأْنَفَ حَديثَهُ قائِلًا : « عِنْدَما كانَتِ العاصِفَةُ تَتَجَمَّعُ قُلْتُ لِأَبيكَ : لا بُدَّ أَنْ نَعودَ وَنَدْخُلَ خَليجَ لاس أَنيماس . فَضَحِكَ مِنْ كَلامي وَقالَ : إِنَّ الرِّياحَ في صالِحِنا ، وَنَسْتَطيعُ أَنْ نَصِلَ إِلى جَزيرَةِ سيرالْفو قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَنا العاصِفَةُ . هٰذا ما قَرَّرَهُ هُوَ ، وَكانَ قَرارُهُ خاطِئًا . لَقَدْ أَصْدَرَ هٰذا الْقَرارَ الْخاطِئَ بِسَبَبِ اللُّؤْلُؤَةِ لِأَنَّهُ قَدَّمَها لِمُتْحَفِ الْمَدينَةِ ، وَكانَ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ سَيَنْجو مِنْ أَيَّةِ عاصِفَةٍ . هُوَ لَمْ يَقُلْ ذٰلِكَ ، وَلٰكِنّي كُنْتُ أَرى اللُّؤْلُؤَةَ في مُخَيِّلَتِهِ . عَرَفْتُ ذٰلِكَ مِنَ الْأُسْلوبِ الَّذي كانَ يَتَكَلَّمُ بِهِ وَالطَّريقَةِ الَّتي كانَ يَنْظُرُ بِها . »

رَفَعَ الْإِشْبيليُّ رَأْسَهُ وَتَطَلَّعَ إِلى السَّماءِ وَرَفَعَ يَدَهُ كَيْ يُرِيَني كَيْفَ كانَ أَبي يَبْدو . هٰكَذا بَدا أَبي في غُرْفَةِ مَنْزِلِنا عِنْدَما أَعْطى اللُّؤْلُؤَةَ إِلى الْعَمِّ غالارْدو ، هٰكَذا بَدا أَبي عِنْدَما قالَ لِأُمّي : « سَيَشْمَلُ اللهُ أُسْرَتَنا بِرِعايَتِهِ الْآنَ وَإِلى الْأَبَدِ . »

وَاصَلَ الْإِشْبيليُّ حَديثَهُ قائِلًا : « كُنْتُ أُدْرِكُ مِنْ أُسْلوبِهِ في الْكَلامِ أَنَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ اللهَ يُمْسِكُ بِيَدِهِ . »

رَفَعَ الرُّمْحَ كَأَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِرَمْيِهِ ، ثُمَّ قالَ : « إِذا كانَ لَكَ أَنْ تُفَكِّرَ مِنْ جَديدٍ في سَرِقَةِ اللُّؤْلُؤَةِ مِنَ الْمُتْحَفِ هَلْ تَفْعَلُ ذٰلِكَ ؟ طَبْعًا لا ! لَنْ تَسْرِقَها ، خُصوصًا بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ لِماذا تَحَطَّمَتِ السُّفُنُ . كَذٰلِكَ لَنْ تَسْرِقَها مِنْ صَديقِكَ الطَّيِّبِ غاسْبَر رُويز ، الْإِشْبيليِّ – أَ لَيْسَ كَذٰلِكَ ؟ »

اِنْتَظَرَ أَنْ أُجيبَ وَلٰكِنّي بَقيتُ صامِتًا . وَجَلَسْتُ أُراقِبُ شَيْطانَ الْبَحْرِ يَسْبَحُ خَلْفَنا . كُنْتُ قَدْ قَرَّرْتُ ما سَأَفْعَلُهُ سَواءٌ أَ قَتَلَ شَيْطانَ الْبَحْرِ أَوْ لَمْ يَقْتُلْهُ – قَرَّرْتُ ما سَأَفْعَلُهُ .

الفصلُ الثامنَ عشرَ

الموتُ

سبحَ شيطانُ البحرِ مرّةً أُخرى في دائرةٍ كبيرةٍ أبعدَ مِنْ مدى الرُّمحِ ، ثُمَّ عادَ واقترَبَ أكثرَ مِمّا كانَ . وكانَتْ عيناهُ الصفراوانِ مُثبَّتَتَيْنِ على الإشبيليِّ وليسَ عليَّ وكأنَّهُ أرادَ أنْ يقولَ : « إيّاكَ أنْ تجرُؤَ على رَمْيي بهذا الشيءِ الذي في يدِكَ ! »

أطلقَ الإشبيليُّ صيحةً عاليةً ، وسمعتُ الرُّمحَ ينطلقُ مِنْ يدِهِ يتبعُهُ الحبلُ . وعلِقَ الحبلُ بقدمي وقذفَ بي إلى جانبِ القاربِ ، واعتقدتُ أنّهُ سوفَ يقذِفُ بي إلى البحرِ ، ولكنْ بطريقةٍ ما انفكَّ الحبلُ مِنْ قدمي . ورأيتُ ، وأنا راقدٌ على جانبِ القاربِ ، الرُّمحَ الطويلَ يرتفعُ إلى أعلى ثُمَّ يهوي لينغرزَ في جسمِ شيطانِ البحرِ بينَ جناحيهِ . وعندئذٍ انجذبَ حبلُ الرُّمحِ بعنفٍ فوثبَ القاربُ إلى أعلى ثُمَّ عادَ إلى سطحِ الماءِ . وانجذبَ الحبلُ مرّةً أخرى فاندفعَ القاربُ إلى الأمامِ نحوَ الشرقِ .

قالَ الإشبيليُّ : « إنَّ صديقَكَ يأخذُنا في الاتّجاهِ الصحيحِ ، وإذا سِرْنا بهذه السُّرعةِ فسوفَ نصِلُ إلى غوايماس في ساعةٍ مُبكّرةٍ مِنَ الغدِ . »

لكنَّ شيطانَ البحرِ سبحَ نحوَ الشرقِ مسافةً قصيرةً قبلَ أنْ يستديرَ ويتّجهَ إلى الغربِ . كانَ يتحرّكُ ببطءٍ فلم تتسرّبِ المياهُ إلى القاربِ ، وكانَ يسبحُ في خطٍّ مستقيمٍ . قالَ الإشبيليُّ : « إنَّ صديقَكَ يسيرُ في اتّجاهٍ خاطئٍ ، ولكنَّ

هذهِ الأسماكَ تتعبُ بسرعةٍ . »

انقضى الصباحُ ، وحلَّ الظُّهرُ ، وما زالَ شيطانُ البحرِ يسبحُ ببطءٍ في اتّجاهِ الغربِ .

ذهبَ الإشبيليُّ إلى مقدّمةِ القاربِ ونظرَ إلى الرُّمحِ وقدِ انغرزَ في ظهرِ شيطانِ البحرِ ، ثُمَّ نظرَ إليَّ ، وكنتُ أتساءلُ : « هلْ أدركَ أنَّ هذا هوَ شيطانُ البحرِ وليسَ سمكةً مِنَ الأسماكِ التي لا يخشاها ؟ »

وقفَ الإشبيليُّ واستلَّ سِكّينَهُ الطويلَ ، واعتقدتُ أنّهُ ينوي قطعَ الحبلِ الذي يربطُنا بالشيطانِ . ربّما فكّرَ في ذلكَ فعلًا لحظةً واحدةً ، ولكنّهُ عادَ وقالَ : « لا ! لا ! لا ! » وأعادَ سكّينَهُ ، وبدأَ يجذبُ الحبلَ جانبًا وبسرعةٍ .

اندفعَ القاربُ إلى الأمامِ ، واستمرَّ شيطانُ البحرِ يسبحُ كما كانَ يفعلُ مِنْ قبلُ . وأخيرًا اقتربْنا منهُ بحيثُ كنتُ أستطيعُ أنْ أضعَ يدي على ذيلِهِ .

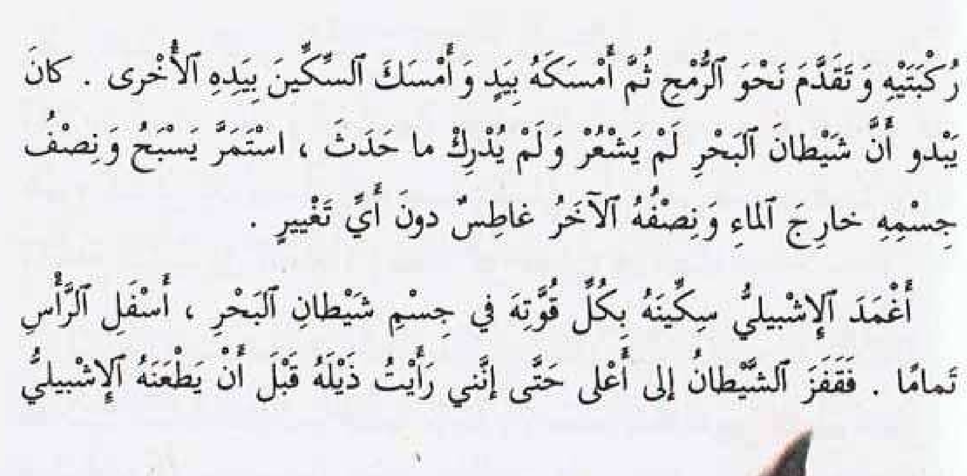
ربطَ الإشبيليُّ الحبلَ في مقدّمةِ القاربِ ، وخلعَ قُبّعتَهُ ثُمَّ أمسكَ سكّينَهُ وأخذَ نفسًا عميقًا ثُمَّ زفرَهُ ، وكرّرَ ذلكَ مرّةً ثانيةً وثالثةً ، كما لو كانَ يستعدُّ لغوصةٍ طويلةٍ .

قلتُ في نفسي : « لقدْ قرّرَ أنْ يقتلَ شيطانَ البحرِ مهما استغرقَ ذلكَ مِنْ وقتٍ ، ومهما كانَ الثمنُ . إنّهُ يريدُ أنْ يفعلَ ذلكَ حتّى يثبتَ أنّهُ هوَ — غاسبر رويز — الإشبيليُّ ، أشجعُ مِنْ رامون سالازار . »

نهضتُ واقفًا وأمسكتُ سكّيني بيدي وصحتُ : « سنقتلُهُ معًا . »

نَظَرَ ٱلإِشْبيليُّ إلى سِكّيني وَضَحِكَ قائِلًا : « بِهٰذا ٱلسِّكّينِ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَقْتُلَ جَدَّتَهُ . اِجْلِسْ وَتَشَبَّثْ بِجانِبِ ٱلقارِبِ . لَوْ بَدَأَتِ ٱلسَّمَكَةُ تَغوصُ فَاقْطَعِ ٱلحَبْلَ حَتّى لا تَغوصَ أَنْتَ وَٱلقارِبُ مَعَها ، وَتَذَكَّرْ ياصَديقي ، لا تَلْمِسِ ٱللُّؤْلُؤَةَ . »

عِنْدَئِذٍ قَفَزَ ٱلإِشْبيليُّ وَهَبَطَ عَلى ظَهْرِ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ٱلعَريضِ . هَبَطَ عَلى



رُكْبَتَيْهِ وَتَقَدَّمَ نَحْوَ ٱلرُّمْحِ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِيَدٍ وَأَمْسَكَ ٱلسِّكّينَ بِيَدِهِ ٱلأُخْرى . كانَ يَبْدو أَنَّ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ لَمْ يَشْعُرْ وَلَمْ يُدْرِكْ ما حَدَثَ ، اسْتَمَرَّ يَسْبَحُ وَنِصْفُ جِسْمِهِ خارِجَ ٱلماءِ وَنِصْفُهُ ٱلآخَرُ غاطِسٌ دونَ أَيِّ تَغْييرٍ .

أَغْمَدَ ٱلإِشْبيليُّ سِكّينَهُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ في جِسْمِ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ ، أَسْفَلِ ٱلرَّأْسِ تَمامًا . فَقَفَزَ ٱلشَّيْطانُ إلى أَعْلى حَتّى إِنَّني رَأَيْتُ ذَيْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَطْعَنَهُ ٱلإِشْبيليُّ

طَعْنةً ثانيةً . وَكانَتِ ٱلْأَمْواجُ ٱلصَّغيرةُ ٱلَّتي تُغطّي ظَهْرَهُ مُمْتَزِجةً بِدِمائِه . وَضَرَبَ ٱلماءَ بِذَيْلِهِ وَانْبَعَثَ مِنْ جَوْفِهِ صَوْتٌ عَميقٌ ، وَرَفَعَ جَناحَيْهِ عَلى ظَهْرِهِ كَما لَوْ كانَ يُريدُ أَنْ يُزيحَ بِهِما ٱلإِشْبيليَّ . ثُمَّ غاصَ فَجَذَبَ ٱلحَبْلَ وَراءَهُ وَانْدَفَعَ ٱلقارِبُ إِلى ٱلأَمامِ ، وَسَقَطَ كُلُّ طَعامِنا في ٱلماءِ .

لَمْ أَجِدْ فُرْصةً أَقْطَعُ فيها ٱلحَبْلَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَفيَ شَيْطانُ ٱلبَحْرِ عَنِ ٱلأَنْظارِ ، فَغاصَتْ مُقَدِّمةُ ٱلقارِبِ وَغطَّتْها مَوْجةٌ . وَعِنْدَما بَدَأْنا نَغوصُ انْقَطَعَ ٱلحَبْلُ . كانَ ٱلإِشْبيليُّ جاثيًا عَلى رُكْبَتَيْهِ مُمْسِكًا ٱلرُّمْحَ بِيَدَيْهِ ، رُبَّما لِيَغْرِزَهُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ . وَلٰكِنَّ طَرَفَ ٱلحَبْلِ ٱلمَقْطوعِ انْدَفَعَ نَحْوَهُ وَالْتَفَّ حَوْلَهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ وَقَيَّدَهُ حَتّى أَصْبَحَ لا يَسْتَطيعُ ٱلحَرَكةَ .

لَمْ يَنْطِقِ ٱلإِشْبيليُّ بِكَلِمةٍ ، وَلَمْ يُطْلِقْ صَرْخةً . كانَ ظَهْرُهُ مُواجِهًا لي ، فَشاهَدْتُ عَلَيْهِ ٱلصُّوَرَ ٱلمَرْسومةَ عَلَيْهِ بِٱللَّوْنَيْنِ ٱلأَحْمَرِ وَٱلأَخْضَرِ . وَغطَسَ ٱلإِشْبيليُّ وَهُوَ لا يَزالُ مُمْسِكًا بِٱلرُّمْحِ .

أَفْرَغْتُ ٱلقارِبَ مِنَ ٱلماءِ ، وَاسْتَعَدْتُ ٱلمِجْدافَيْنِ مِنَ ٱلبَحْرِ ، وَكانا عَلى مَقْرُبةٍ مِنَ ٱلقارِبِ . وَجَذَّفْتُ جَيْئةً وَذَهابًا في ٱلمَكانِ ٱلَّذي غطَسَ فيهِ ٱلإِشْبيليُّ . وَلَمْ أَرَ سِوى بُقَعٍ مِنَ ٱلدِّماءِ . أَمّا هُوَ فَقَدْ هَبَطَ مَعَ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ إِلى ٱلقاعِ . وَكانَتْ هٰذِهِ هِيَ نِهايةَ غاسْبَر رُويز .

عِنْدَ غُروبِ ٱلشَّمْسِ بَسَطْتُ ٱلشِّراعَ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ لاباز ، ثُمَّ فَكَّرْتُ في ٱللُّؤْلُؤةِ . لَقَدْ كانَتْ في مُؤَخَّرِ ٱلقارِبِ حَيْثُ تَرَكَها ٱلإِشْبيليُّ . وَكانَتِ ٱلشَّيْءَ ٱلوَحيدَ ٱلَّذي لَمْ يُطْرَحْ في ٱلبَحْرِ .

الفَصْلُ ٱلتّاسِعَ عَشَرَ

العَوْدةُ إلى ٱلبَيْتِ

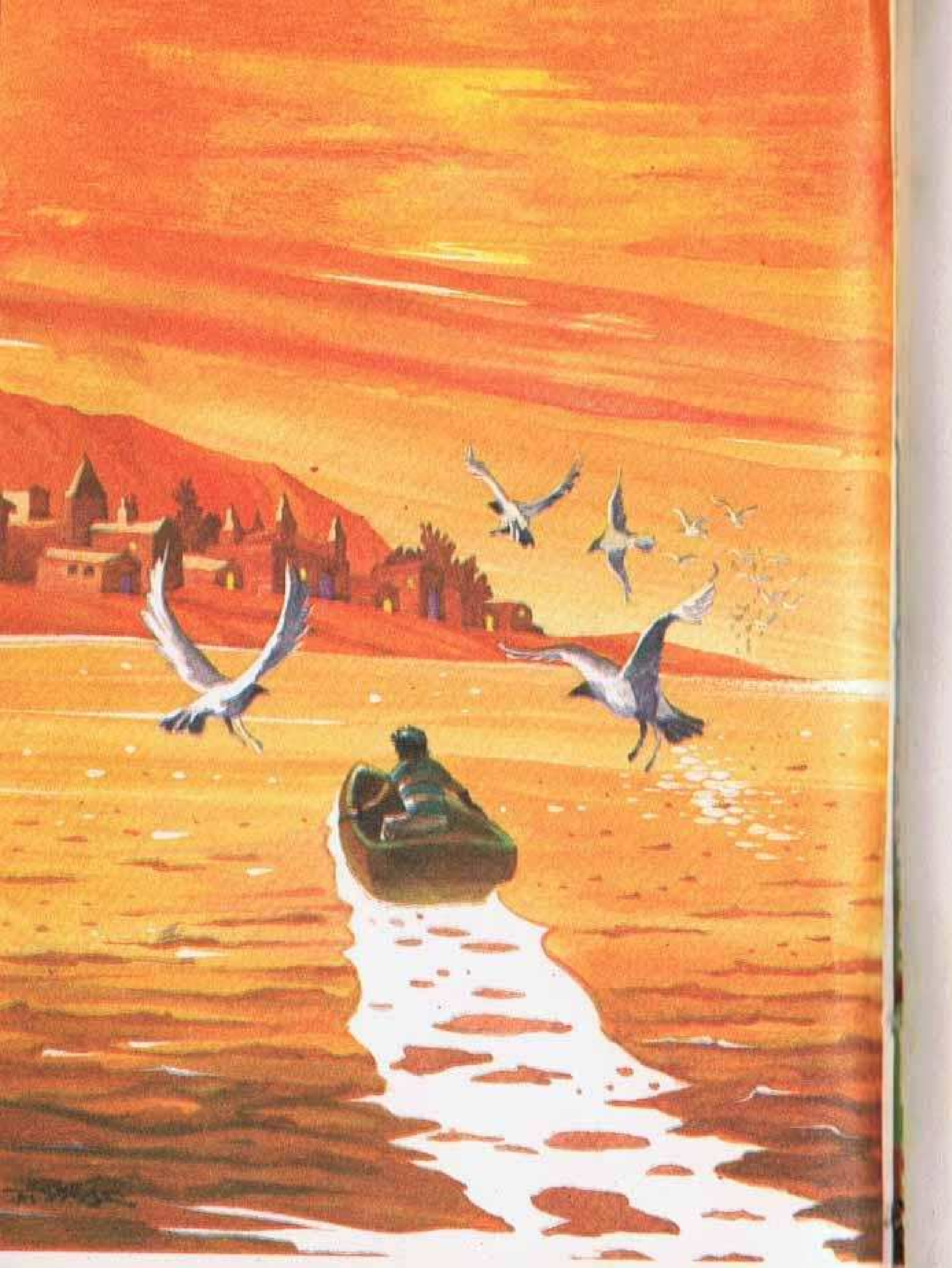
كانَتِ ٱلمَدينةُ نائِمةً عِنْدَما دَخَلْتُ ٱلخَليجَ ، وَلٰكِنْ يَبْدو أَنَّ ٱلطُّيورَ كانَتْ تُحِسُّ بِقُرْبِ شُروقِ ٱلشَّمْسِ .

جَذَبْتُ ٱلقارِبَ فَوْقَ ٱلرِّمالِ ، ثُمَّ سِرْتُ في ٱلشّارِعِ بِهُدوءٍ وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ ٱلمُتْحَفِ . كانَ ٱلبابُ مُوارِبًا ، فَدَفَعْتُهُ دونَ أَنْ يُحْدِثَ صَريرًا وَدَلَفْتُ إِلى ٱلدّاخِلِ . لَمْ أَرَ أَحَدًا هُناكَ ، وَلٰكِنّي رَأَيْتُ إِعْلانًا كَبيرًا :
« مُكافَأةٌ أَلْفُ بيزو لِأَيِّ فَرْدٍ يَقْبِضُ عَلى ٱللِّصِّ ٱلَّذي سَرَقَ ٱللُّؤْلُؤةَ . »

أَخَذْتُ وَرَقةَ ٱلإِعْلانِ وَوَضَعْتُها في جَيْبي ، وَأَعَدْتُ ٱللُّؤْلُؤةَ إِلى مَكانِها . وَتَذَكَّرْتُ ٱلإِشْبيليَّ ، وَتَذَكَّرْتُ شَيْطانَ ٱلبَحْرِ ، هٰذا ٱلكائِنَ ٱلجَميلَ وَٱلمُخيفَ ٱلَّذي لَمْ يَشْهَدْهُ حَقيقةً سِوى اثْنَيْنِ ، أَحَدُهُما فَقَطْ لا يَزالُ حَيًّا .

خَرَجْتُ إِلى شُرْفةِ ٱلمُتْحَفِ ، وَكانَتْ تُطِلُّ عَلى ٱلمَدينةِ ، فَرَأَيْتُ ٱلنِّساءَ في طَريقِهِنَّ لِجَلْبِ ٱلمِياهِ ، وَقَدْ حَمَلْنَ ٱلجِرارَ عَلى رُؤوسِهِنَّ ، وَكانَتِ ٱلنِّيرانُ مُشْتَعِلةً في ٱلبُيوتِ لِطَهْيِ طَعامِ ٱلإِفْطارِ .

غادَرْتُ ٱلمُتْحَفَ عائِدًا إِلى ٱلبَيْتِ ، وَقَلْبي يَنْبِضُ بِشِدَّةٍ ، وَشَعَرْتُ أَنَّني في هٰذا ٱليَوْمِ أَصْبَحْتُ رَجُلًا . في هٰذا ٱليَوْمِ فَقَطْ وَلَيْسَ في ٱليَوْمِ ٱلَّذي أَصْبَحْتُ فيهِ شَريكًا لِأَبي ، وَلا في ٱليَوْمِ ٱلَّذي وَجَدْتُ فيهِ لُؤْلُؤةَ ٱلسَّماءِ ، هٰذا هُوَ ٱليَوْمُ ٱلَّذي صِرْتُ فيهِ رَجُلًا .



فِي ٱلطَّرِيقِ إِلى ٱلبَيْتِ فَكَّرْتُ في قِصَّةٍ أَرْوِيها لِوالِدَتي ، فَهِيَ لَنْ تُصَدِّقَ ما حَدَثَ – تَمامًا كَما كُنْتُ لا أُصَدِّقُ قِصَّتَها ٱلَّتي رَوَتْها لي في ٱلماضي ٱلبَعيدِ عَنْ شَيْطانِ ٱلبَحْرِ !

المغامرات المثيرة



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت
رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 214 01